This item is provided to support UOB courses.

Its content may not be copied or emailed to multiple sites or posted to a listserv without the copyright holder's express written permission.

However, users may print, download, or email it for individual use for learning and research purposes only.

هذه الوثيقة متوفرة لمساندة مقرارات الجامعة.

ويمنع منعا باتاَ نسخها في نسخ متعددة أو إرسالها بالبريد الالكتروني الى قائمة تعميم بدون الحصول على إذن مسبق من صاحب الحق القانوني للملكية الفكرية لكن يمكن للمستفيد أن يطبع أو يحفظ نسخة منها لاستخدام الشخصي لأغراض التعلم والبحث العلمي فقط.

سلسلة: الآداب
مجلد: XXXI

الدكتور محمد القاضي

الخبر في الأدب العربي

دراسة في السردية العربية

كلية الآداب ، منوبة
تونس

دار الغرب الإسلامي
بيروت

1998

Arab 231
Dr. Dheya
AL-Kaabi

فرهنت ابن أخي زوجها وهربت. وبعد هذا رجع الخبر إلى الثريا وعمر بن أبي ربيعة. فهذا الاستطراد المغلق، وإن كسر الترتيب العادي للزمن قد جاء لإلقاء ضوء كاشف على أصول الثريا، وتقديم الدليل على أن العصا من العصيّة.

ولا يصحّ أن نختم القول في هذا الموضوع دون أن نلمّ بجانب آخر منه يسم ترتيب الأخبار في «الأغاني» بميسمه، حتى لا تكاد تخلو منه ترجمة، ونعني به الاستطراد الشعري. وقد دأب أبو الفرج على قطع الترجمة بأخبار تدلّ على سيرورة الشعر تمثلاً وغناء واحتجاجاً وتحقيقاً. ولنا في أخبار العرجي مثال على ذلك جلي. فقد جيء بخبر ذُكِرَ فيه قول العرجي حين كان في الحبس: «أضاعوني وأي فتى أضاعوا». فكان ذلك مناسبة لإيراد أربعة أخبار أخرى استُشهد فيها بشعر العرجي. أولها بين أبي حنيفة (تـ 150 هـ) وجاره الفتى المغنّي، وثانيها بين المنصور وعبد الله ابن علي (تـ 147 هـ) حين كان في الحبس، وثالثها بين الأصمعي وكنّاس البصرة، ورابعها بين إسحق الموصلي وهارون الرشيد[1]. إن هذا النوع من الاستطراد يحوّل مركز الحديث من القائل إلى المقول، ويلبي حاجة القارىء إلى الانتقال من موضوع إلى آخر، ويكشف عن تواصل الأقوال المأثورة وخرقها حاجز الزمن. وبهذا فإن منطق الأحداث يتأخر ويفسح المجال لمنطق جديد هو منطق الخطاب الذي تصبح السطوة فيه للمؤلف.

إنّ حديثنا هذا عن طرائق ترابط الأخبار قد ساعدنا على تبيّن بعض السمات التي تتميّز بها كتب الأخبار. ولعله قد أوقفنا على خصيصة أساسية في نظرنا هي أن الخبر بوصفه وحدة سردية مستقلة قد يسّر على المؤلفين أن ينشئوا مجموعات خبرية متعدّدة تقوم بين وحداتها علاقات متنوعة، وأنظمة في الترتيب مختلفة. وهذا الوضع المخصوص يبيّن لنا أمرين: أولهما أن دور المؤلف ليس منحصراً في الوساطة بين مصادر الخبر والقارىء، وإنما هو دور يحدّد مجالات القراءة، ويبعث القارىء على استكشاف علاقات جديدة بين الأخبار لم تكن لها حين كانت مفردة. وثانيهما أن دراسة الخبر منفصلاً عن سائر الأخبار المجاورة له في الأثر عمليّة مضلّة، لأنها تحجب عنّا الوظيفة التي أودعها إياه المؤلف، وهي التي تحدّد منزلته في الأثر. ومن هنا جاءت ضرورة تجاوز الخبر الواحد دراسة وتحليلاً إلى مجموعة الأخبار التي

(1) م. ن، ج 1، ص ص 413 ـ 417.

يأتلف عقدها في وحدة أكبر. وعلى هذا سيكون مدار عملنا في ما يلي.

2 ـ 2. «الرواية»العذرية ووظائفها:

لقد أسلمنا النظر في كتب الأخبار التي بين أيدينا إلى نتيجة تتمثل في ظهور مجالين تطوّر فيهما التأليف في الأخبار هما قصص البطولة وقصص الحب العذري. والناظر في كتاب «الأغاني» على سبيل المثال ـ وهو أكبر مدوّنة للأخبار في التراث العربي ـ يلاحظ أن قصص البطولة قد استوت فنّاً من فنون التأليف يختص برواته وأهمّهم محمد بن السائب الكلبي وابنه هشام بن الكلبي وابن الأعرابي وأبو عبيدة والمفضّل الضّبّي وحمّاد الراوية والشرقي بن القطامي وأبو عمرو الشيباني؛ كما يختص بطرائقه، فأخبار البطولة أطول من سائر الأخبار لغلبة الأحداث عليها ولتحكّم الرابط السببي في العلاقة بين أحداثها. لذلك يولّد الفعلُ ردُّ فعل، ويصبح ردُّ الفعل فعلاً يتولّد عنه بدوره فعل، وهكذا دواليك، حتى تتشعب القصّة وتكاد تخرج عن حدّ الخبر باعتباره وحدة سردية بسيطة. ولعلّ المجال الذي يمكن اعتماده لرصد قصص البطولة هو أيام العرب، وهو فن تطوّر التأليف فيه منذ القرن الثاني للهجرة. وقد أورد صاحب «الفهرست» عناوين كتب كثيرة في هذا الفنّ، نذكر منها لأبي عبيدة «كتاب الأيام» و«كتاب أيام بني مازن وأخبارهم» و «كتاب أيام بني يشكر وأخبارهم»، ولهشام بن الكلبي «أيام بني حنيفة» و«أيام فزارة ووقائع بني شيبان» و «أيام قيس بن ثعلبة» و«أخبار عمرو بن معدي كرب» و«المنذر ملك العرب» و«داحس والغبراء» و«وقائع الضباب وفزارة» و«كتاب الكلاب وهو يوم النشاش»، وللمدائني «يوم سنبيل»، ولأبي اليقظان (تـ 170 هـ) «أخبار تميم»، ولعمر بن بكير «يوم الغول» و«يوم الظهر» و«يوم أرمام» و «يوم الكوفة» و«يوم منابض»[1].

وقد نشر أستاذنا محمد اليعلاوي فصلاً قيماً في هذا الموضوع وسمه بـ«أدب أيام العرب»، ذكر فيه أهميّة هذا الأدب ومقوّماته وصورة المجتمع من خلال نصوصه والفنّ القصصي فيه. ومن أهمّ ما جاء في هذا الفصل ـ ممّا له صلة بموضوعنا ـ أن هذا الأدب أوّل مظهر روائي في الأدب العربي القديم. يقول الأستاذ اليعلاوي: «هذا

(1) ابن النديم: الفهرست، ص ص 60 ـ 110 ـ 115 ـ 120.

الأدب هوأوّل نموذج للنثر القصصي العربي، في المعنى الـ«درامي» للقصص، أي تسلسل الأحداث من مقدمة إلى عقدة إلى انفراج، مع تحليل لنفسيات الأبطال، وإشعار للقارىء بالعبرة الأخلاقية الإنسانية التي ينبغي أن يستخلصها من تصرّفاتهم. فالأيام من هذه الناحية قصص حربي خليق بأن يُدرس من جهتي المضمون والشكل، في سموّ معانيه وعمق أبعاده الخلقية، وفي طرافة خياله وجزالة لغته وتنوّع أساليبه التعبيرية، وبالخصوص في سرده للحوادث وترتيبها وقطعها [. . .] على مقتضى التشويق القصصي. ولعلها هي النموذج الصحيح من النثر الروائي العربي أوّل نشأته»[1].

ولعل هذا التطوّرالمبكر لأدب أيام العرب قد منعه من أن يشهد ما شهدته قصص الحب من نموّ وتشعب وحركية سايرت التحول الذي شهده المجتمع العربي خلال القرون الهجرية الأربعة الأولى[2]. وهذا ما دعانا إلى النظر في قصص الحبّ بالذات لبيان نظام الأخبار فيها ووجوه التماثل بينها. لقد نصّ عدد من الباحثين على أن أخبار العشاق في الأدب العربي القديم أصبحت تمثل غرضاً أساسياً من أغراض الرّواية، لا بل إنها تطوّرت حتى صار يصح اعتبارها فناً مستقلاً. يقول طه حسين: «إن فنّ القصص الغرامي [. . .] ظهر، أو على أقل تقدير قوي وعظم أمره أيام بني أمية، وأخذ ينظّم شيئاً فشيئاً حتى كاد يكون فنّاً مستقلاً على نحو ما نرى من فنون القصص الغرامي في الأدب الحديث. فليس يعنيني أن يكون شخص قيس ابن الملوّح تاريخياً، أو غير تاريخي، وإنما الذي يعنيني أن هناك قصة غرامية هي قصة قيس بن الملوح، وقصة غرامية أخرى هي قصة قيس بن ذريح، وقصة غرامية ثالثة هي قصة جميل بن معمر، وهلم جرّاً. . .»[3]. وبيّن أن طه حسين يميّز في قوله هذا بين «القصة» و «الخبر». فالقصة عنده هي هذا النصّ الذي يحصل من التأليف بين عدد من الأخبار. وهذا، على وجه الدقة، ما عناه بروكلمان إذ قال: «كانت أخبار حبّ جميل وبثينة قد استولت على خيال الشعب العربي، حتى صنع منها قصة غرام. وأخذت موادّ هذه القصة تتكاثر وتتزايد باطّراد في أواخر العصر

(1) محمد اليعلاوي: أدب أيام العرب، حوليات الجامعة التونسية، ع 20/ 1981، ص 59.

(2) يقول الأستاذ اليعلاوي في هذا المعنى إن أسلوب أبي الفرج الأصبهاني لا يختلف في روايته للأيام عن كلام أبي عبيدة، م. ن، ص 59.

(3) طه حسين: حديث الأربعاء، ج 1، المجموعة الكاملة، المجلد الثاني، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1973، ص 186.

الأموي، حتى حمل السرور والإعجاب بها على إنشاء حلقات من القصص الغرامية، تعتمد على أغاني الغزل المشهورة من ناحية، كما تشتبك بمختلف البواعث النابعة من آداب الأمم عامة، من ناحية أخرى»[1].

وإذا كان بعض الدارسين العرب يرفض أن ينظر في هذه القصص الغرامية من زاوية الفنون القصصية المستحدثة معتبراً ذلك «قسراً للتاريخ ومطالبة له بما ليس من مقدوره»[2]، وبعضهم الآخر ينفي عن هذه القصص أية قيمة فنية، فـ«مثل هذه القصص إذا كان لها دلالة شعبية فليست لها قيمة فنية حتى تعدّ جنساً أدبياً. على أن مثل هذه الحكايات لم يتوافر لها من الرواية ما يجعلنا نحفل بها»[3]، فإن قسماً آخر من الدارسين لم يتردّد في إطلاق اسم «الرواية» على هذه القصص. ولنا في كتاب فاروق خورشيد «الرواية العربية: عصر التجميع» نموذج فذّ من هذا الموقف. فقد وضعه صاحبه للبرهنة على أن الرواية العربية الحديثة ما كانت لتبلغ في وقت وجيز مرحلة النضج لو لم تكن لها جذور ممتدة في الزمان. وراح ينقب عن هذه الجذور، فوجد أن الرواية متأصلة فينا، وأن دراستنا إياها ينبغي أن تأخذ في الاعتبار مختلف المراحل التي قطعتها، يقول خورشيد: «نستطيع أن نقسّم دراسة الرواية العربية إلى عدة مراحل. فهي تبدأ أوّلاً بمرحلة كتب الأخبار التي ظهرت في العصر الأموي واستمرّت إلى العصر العباسي. وهذه تدلّ على خصائصها وتبيّن ملامحها كتب وهب بن منبه وعبيد بن شرية من خلال ابن هشام. وتأتي بعد هذا مرحلة التأليف المعاصر في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي، في مثل «كليلة ودمنة» و «سيرة» ابن إسحاق التي يقدّمها للأدب العربي ابن هشام. ثم يظهر القصص الشعبي المجمّع في أمثال كتاب «ألف ليلة وليلة». ونلمح آخر الأمر صورة من الرواية العربية في سيرة عنترة، وذات الهمة، والظاهر بيبرس، وسيف بن ذي يزن، وحمزة البهلوان»[4].

ولسنا نريد مناقشة الباحث في مدى صحّة هذه المراحل، وسلامة النماذج التي

(1) كارل بروكلمان: تاريخ الأدب العربي، ج 1، ص 199.

(2) د. عبد الحميد إبراهيم: قصص العشاق النثرية في العصر الأموي، ص 164. ومما يعلّل به الباحث رأيه أن «الكثير من هذه القصص، مجرّد أخبار وأحاديث لا قيمة لها من الناحية الفنية».

(3) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ط 1، دار العودة، بيروت، 1982، ص 524.

(4) فاروق خورشيد: الرواية العربية: عصر التجميع، ص 75.

اتخذها لكل منها، ومدى قيام كل مرحلة على سابقتها. لسنا نريد مناقشته في هذا لأن ذلك يخرجنا عمّا نحن بصدده. ولكننا أوردنا قوله لأنه ـ على تهافته ونزوعه إلى المبالغة ـ يبيّن لنا أن بعض الدارسين المعاصرين يرون أن الأدب العربي القديم غير خال من الرواية. وهم يلتقون في هذا ـ على نحو ما ـ مع بعض المستشرقين الذين رأوا في أخبار العشاق نماذج روائية. ولعلّ في مقدّمة هؤلاء المستشرقين ريجيس بلاشير وهو يقرّ «بوجود قصة غرامية ذات ملامح روائية»[1] منذ عهد مبكر في الأدب العربي. ويرى أن تحليل الأسانيد التي أوردها أبو الفرج الأصبهاني في كتاب «الأغاني» عند عرضه لأخبار جميل (تـ 80 هـ) وعروة بن حزام (تـ نحو 30 هـ) وابن العجلان والمرقش الأكبر (تـ نحو 75 ق هـ) والمرقش الأصغر (تـ نحو 50 ق هـ) ووضاح اليمن (تـ نحو 90 هـ) يؤدي بنا إلى التسليم بأن «تحويل شاعر القبيلة بطلاً لرواية غرامية أمر مألوف»[2] عند العرب منذ القرن الثاني للهجرة.

وفي هذا السياق يحلل أندري ميكال (André Miquel) ظاهرة تحويل الشاعر بطلاً لرواية عذرية، فيرى أن هذه العملية بدأت منذ القرن الأوّل للهجرة مع أبي دهبل (تـ 63 هـ) وكثير (تـ 105 هـ) ونصيب (تـ 108 هـ)، إلا أنها كانت محدودة، لم يقيض لها أن تتوسع ويعظم أمرها إلا في العراق بداية من القرن الثاني للهجرة. يقول: «إن تكوين أسطورة عذرية حول [هؤلاء] الشعراء، ومعاملة الخلف لآثارهم في هذا الاتجاه ـ وقد ظهرت، بعدُ، بذورُ ذلك بالنسبة إلى الشعراء الذين ذكرناهم منذ حين ـ قد بلغا مع آخرين نسباً عظيمة. إنهم بقدر ما هم أشخاص تاريخيون وأحياناً أكثر من ذلك هم أبطال رواية بالمعنى الصحيح»[3]. ويشير ميكال بذلك إلى قيس بن ذريح (تـ 68 هـ) ووضاح اليمن وجميل والمجنون، ويقول إن ارتباط هذه الروايات بالواقع متفاوت، فـ«لئن كانت قصة قيس ولبنى، أو قصة جميل بثينة، وقد شهد، بعدُ، منتصَفُ القرن التاسع [النصف الأول من القرن الثالث للهجرة] تكوُّنَهما، لاتزالان تذكران بعض الأخبار المتعلقة بحياتهما، فإنّ الأشهَر أي قصة المجنون وليلى

(1) ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي، ج 2، ص 880.

(2) ريجيس بلاشير: قضيّة تحويل الشاعر القبلي بطلا لرواية «عذرية» عند «الاخباريين» العرب في القرن الثالث للهجرة/ التاسع للميلاد (بالفرنسية)، ص 132.

(3) اندري ميكال: الأدب العربي: تعريب رفيق بن وناس وصالح حيزم والطيب العشاش، الشركة التونسية لفنون الرسم، 1980، ص 41.

(القرنان الثامن والتاسع للميلاد [الثاني والثالث للهجرة]) هي قصّة أبطال يبدون حقاً ينتمون إلى الأسطورة الخالصة»[1]. وبصرف النظر عن صحّة انتماء هذه الشخصيات إلى الواقع أو إلى الخيال، وعن طبيعة الأثر الأدبي الذي يصاغ حول مغامراتها: أهو رواية أم أسطورة، فإن ما يعنينا في هذا القول إنما هو تجاوز الوحدة السردية القصيرة المتمثلة في الخبر إلى وحدة سردية أطول منها هي قصّة الحب أو «الرواية» الغرامية أو «الأسطورة» العذرية.

وإذا نحن قبلنا بأن هذا «الشكل» الجديد لم يولد فجأة، فإن الوثائق التي بين أيدينا تجعلنا نميل إلى الإقرار برأي جان كلود فاديه (Jean Claude Vadet) الذي جعل الفترة المنحصرة بين نهاية القرن الثالث وبداية القرن الرابع للهجرة مرحلة أساسية في مسار الرواية العذرية، إذ فيها ضبطت صورة المثل الأعلى العذري على نحو يكاد يكون نهائياً. يقول: «حُدّد نموذَج البطل الروائي نهائياً في أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجري تحت تأثير أصحاب المختارات النثرية والشعرية [...] إنهم هم الذين أنطقوا المصادر القديمة، وجمعوا الدواوين، وحاولوا جاهدين أن ينفخوا الحياة في أبطالهم»[2]. ولهذا فإننا رأينا الاقتصار على كتاب «الأغاني» للفحص عن هذا التطور الذي شهدته الرواية الغرامية. فهو من جهة مصبّ للروايات السابقة له، وهو من جهة أخرى المدونة التي حفظت لنا أكبر عدد من النصوص المتصلة بهذا الموضوع.

إن تعدّد المصطلحات المستخدمة للتعبير عن هذا «الشكل»، من قصة ورواية وأسطورة لا يهمّنا إلا من حيث دلالته على تردّد الباحثين في تسمية هذه الظاهرة. وهو في حدّ ذاته دليل على أن ترابط الأخبار في تراجم الشعراء العشاق قد أنشأ كياناً جديداً ليس الخبر إلا وحدة من الوحدات المكوّنة له. ولئن وقع اختيارنا على لفظ «الرواية» لوصف هذا الكيان الأدبي، مجاراة لبعض المستشرقين، فإن ذلك لا يعني أننا نعدّ هذه القصص روايات بالمفهوم الحديث للكلمة. وإنما اخترناه لأنه يخرجنا من لفظ الخبر، ويجعل المقابلة بين اللفظين قائمة في مستوى قصر الخبر وبساطة

(1) م. ن، ص 41. وقد تردّد المعربون في ترجمة كلمة (roman)، فجعلوها تارة «رواية» وأخرى «قصة».

(2) ج. ك. فاديه: الغزل عند العرب، تعريب إبراهيم الكيلاني، ط 2، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، 1985، ج 2، ص 267.

بنيته، وطول الرواية وتشابك حلقاتها. وفي هذا الاختيار تلميح إلى ما أصبح متعارفاً عليه في عصرنا من أمر الرواية. ونحن نستخدم هذا المصطلح دون أن نذهب إلى القول بوجود تطابق بين الشكلين القديم والحديث.

لن نهتم في عملنا هذا بالجانب التاريخي للمسألة، ولن نفحص عن مظاهر التطوّر التي شهدتها الرواية العذرية، ولا عن المراحل الأساسية التي قطعتها. وإنما نريد أن ننظر في هذه المادة الأخبارية التي حفظها لنا الأصبهاني في كتاب «الأغاني» نظرة آنية، باعتبارها مدوّنة واحدة، تخضع لقوانين في التأليف مضبوطة، وتؤول إلى «قالب» (archétype) نظري واحد. وطبيعي أن هذه الروايات ما كان لها أن توجَد لولا توفّر جملة من الظروف الأدبية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية. إلاّ أننا لن نعتني بهذا الجانب أيضاً في بحثنا هذا لأنه سيصرفنا عن الاهتمام بالبنية إلى الاهتمام بالدلالة. ولعل فيما قام به فاديه في هذا المجال ما يشفي الغليل[1]. حسبنا إذن أن نكشف الغطاء عن الملامح الكبرى للرواية العذرية، والمنوال الذي عليه نُسجت مختلف الروايات.

إن تتبّع أخبار الشعراء العشاق في كتاب «الأغاني» يوقفنا على ظاهرة بالغة الأهميّة تتمثل في نضج هذه الأخبار من جهة، وعمل أبي الفرج على إحكام صورتها من جهة أخرى. فهو كثيراً ما يستهلّ حديثه عن الشاعر العاشق بسلاسل السند التي وافته عن طريقها أخباره، فينص على أن هذه الأخبار جاءت متصلة ومنفصلة، ويذكر أنه اضطلع بترتيبها وسلكها في مساق من الحديث موصول بعضه ببعض. فهو يقول في مستهل رواية قيس بن ذريح: «أخبرني بخبر قيس ولبنى امرأتِه جماعةٌ من مشايخنا في قصص متصلة ومنقطعة، وأخبار منثورة ومنظومة، فألّفت ذلك أجمع ليتسق حديثه، إلا ما جاء مفرداً وعسر إخراجه عن جملة النظم فذكرته على حدة»[2]. ووجود هذه القصص المتصلة يدلّ على أن حبّ قيس للبنى قد غدا موضوعاً من مواضيع التأليف الذي خرج أصحابه من وحدة الخبر إلى وحدة أكبر منها تضم عدداً

(1) م. ن، ج 2، وقد عالج المؤلف هذا الجانب في القسم الثاني: «العذرية خارج نطاق الشعر من القرن الثاني إلى القرن الخامس الهجري». وفي الفصلين السابع «تأثير الأدب على [كذا] الأبطال الروائيين: انتقال النصوص ـ إعداد مثل أعلى» والثامن: «بطلا الرواية العشقية عند أبي الفرج الأصبهاني: جميل بثينة ومجنون ليلى أو أسلوبان لتفسير كتمان الحب»، ص ص 267 ـ 307.

(2) الأصبهاني: الأغاني، ج 9، ص 181.

من الأخبار بينها علاقة. كما أن استعمال أبي الفرج صيغة الجمع في «قصص» يفيدنا أن الروايات لم تكن متطابقة كل التطابق، وأن بعض الأخبار لا يمكن أن تدرج في سياق الأحداث، فتظل نافرة ناشزة. ومن هنا يتجلى لنا الجهد الذي بذله الأصبهاني في تعديل الأصوات بين هذه الروايات وصهرها في رواية واحدة متماسكة الأجزاء.

على أن هذا العمل قد يغدو عسيراً أو قل مستحيلاً إن بلغ الاختلاف بين الروايات حداً لا يمكن معه أن نؤلف بينها في قصة واحدة. وهذا ما حصل لأبي الفرج حين أراد أن ينقل لنا قصة مجنون بني عامر فقال: «أخبرني بخبره في شغفه بليلى جماعة من الرواة، ونسخت ما لم أسمعه من الروايات، وجمعت ذلك في سياقة خبره ما اتسق ولم يختلف، فإذا اختلف نسبت كلّ رواية إلى راويها»[1]. ومن الطبيعي أن يقع أبو الفرج في هذا المأزق إذ أن أخبار المجنون لقيت من الرواج قدراً عظيماً، حتى اتسع الخرق بين بعض الروايات وبعضها الآخر، وظل هذا الخبر المفرد أو ذاك مستعصياً على الاندراج في السلسلة. إننا نلمح في ثنايا هذا القول وجهين من وجوه أبي الفرج أوّلهما وجه القاصّ الذي يبحث عن الانسجام بين الروايات ويسعى إلى إمتاع القارىء بقصة متسقة أحداثها متصلة حلقاتها، ووجه المؤلف الذي يحرص على أن يقدّم للقارىء صورة أمينة عمّا بلغه بطريق المشافهة أو بطريق الكتابة، حتى يحيطه علماً بما هو متداول من الأخبار.

وهذا التمزق بين المنزعين الفني والتاريخي هو الذي يفسّر لنا إشارة أبي الفرج إلى تعدّد الروايات، وتصريحه بأنه يفضّل إحداها. فهو يذكر في بداية حديثه عن عروة بن حزام أنّه «أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى. لا يُعرف له شعر إلاّ في عفراء بنت عمه، [. . .] وتشبيبه بها. أخبرني بخبرها جماعَة من الرواة [. . .] وقد سقت رواياتهم وجمعتها»[2]. وعلى الرغم من أنّ الأصبهاني يذكر أنّه ساق الروايات بعد أن ألف بينها ـ وهي روايات وصلته عن طريق خمس سلاسل تنتهي على التوالي بالأسباط بن عيسى العذري، وإسحاق الموصلي، وعمر بن شبّة، والزبير بن بكار، وابن قتيبة ـ فإنه لا يخفي ميله إلى إحداها، ويقول مبرّراً ذلك: «قال الأسباط بن عيسى ـ وروايته كأنّها أتمّ الروايات وأشدّها اتساقاً ـ أدركت شيوخ الحيّ يذكرون. . .»[3]. ولعلّ هذا ما يفسّر انتظام قصة عروة وقلة التقطع فيها.

(1) م. ن، ج 2، ص 11. (2) م. ن، ج 24، ص 145. (3) م. ن، ج 24، ص 146.

ولئن كان من شأن هذه الأقوال أن تلفت انتباهنا إلى أن قصص العشاق قد أخذت تنحو نحواً مخصوصاً يتجلّى في تركيب عناصرها بطريقة تكوّن منها بنية جديدة، فإنها تنبهنا أيضاً إلى مظهر هامّ من مظاهر تعثر هذه القصص، يتمثل في تراكب الروايات وتقاطعها وتناقضها في بعض الأحيان. ذلك أننا نجد في بعض القصص معطيات لا يمكن أن توجد معاً بالنسبة إلى شخص واحد. فعروة بن حزام مثلاً يقال إنه سافر إلى اليمن لإحضار المال، فلما رجع وجد عفراء قد انتقلت مع زوجها إلى الشام، فرحل في إثرها حتى وجدها. ويقال إنه لم يرحل إلى اليمن في طلب المال، وإنما سافر إلى الشام رأساً فالتقى بها صدفة. أمّا قيس بن ذريح فبعض الرواة يقول إنه انتهى إلى الموت فماتت لبنى أسفاً عليه، ويذكر بعضهم أنها ماتت ثم مات هو أسفاً عليها، في حين ينص بعضهم على أنهما تزوّجا من جديد وظلاّ معاً إلى أن حلّ بهما الموت. والذي يعنينا في هذا الاختلاف بين الرواة أنّه يجعل وحدة القصة مهدّدة، فنجد أنفسنا في كل حالة منها أمام قصص متعددة.

ويتجلى هذا الاختلاف في الأحداث والشخصيات الرئيسية، كما يتجلى في التفاصيل المتعلقة ببعض الأحداث. فإذا كان بعض الرواة ينفرد بذكر حادثة مخصوصة أو شخص محدّد، فإن بعضهم الآخر ينفرد بجزئية أو بصياغة. ولنا في أخبار عروة بن حزام مثالان على ذلك. أولهما أن الأسباط يذكر أن عروة لما ارتحل إلى الشام نزل بزوج عفراء وانتسب له في غير أهله، فلما علمت به عفراء، كشفت لزوجها أمره. أما عمر بن شبّة فيقول إن الذي أخبر الزوج بحقيقة الضيف هو ابن عم الزوج. فالحدث في القصتين واحد وهوانكشاف أمر عروة بعد تخفيه. ولكنهما تختلفان في العون الذي اضطلع بالعملية. وينتج عن هذا الاختلاف اختلاف آخر مداره على الأمارة التي بعث بها عروة إلى عفراء عن طريق جاريتها. فالأسباط يقول إنه أرسل إليها خاتمه فعرفته، ولكن عمر بن شبة الذي يجعل الانكشاف عن طريق ابن العم يسقط هذه الحلقة من قصته. أما المثال الثاني فيتعلق ببداية القصة. فإذا كان أغلب الرواة يذكرون أن عروة نشأ يتيم الأب في حجر عمّه، فأحبّ عفراء ابنة عمه، ووعده أبوها بها، ولكن زوج العمّ أبت تزويجه إياها لفقره، فإن أم جميل الطائية تذهب غير هذا المذهب، وترى أن عفراء هي التي نشأت يتيمة في حجر عمها عمّ عروة، وأن العمّ عرضها عليه فأباها، حتى رآها في يوم عيد وقد ازّيّنت فأعجبته، فخطبها من عمه فمنعه ذلك، وزوّجها رجلاً غيره فارتحل بها إلى الشام. وبين الروايتين اتفاق في الحب والخطبة والمنع والتزويج، واختلاف في ما عدا ذلك، إذ

أن الرواية الأولى تتّهم زوج العم بالجشع والعمّ بالضعف وعدم الوفاء بالوعد، في حين تحمّل الرواية الثانية عروة بعض المسؤولية، ولا تثقل كاهل العمّ إثقالاً تامّاً.

وقد واجهتنا هذه الصعاب ونحن نبحث عن وظائف الرواية العذرية، فلم نجد محيصاً في بعض الأحيان عن إسقاط الأخبار التي لا تتسق مع غيرها، وتبدو ناشزة عنها. ذلك أن أبا الفرج يراوح في رواياته بين عبارتين: «قالوا جميعاً» و «قال فلان». فالعبارة الأولى تستخدم عند اتفاق الرواة، بينما تستخدم العبارة الثانية عند شذوذ أحدهم وانفراده برواية مخصوصة. على أن أبا الفرج ربّما فاضل بين الروايات واختار رواية بعينها لأنها استهوته أو لأنه وجدها أكثر من غيرها تكاملاً وانسجاماً. وفي هذه الحالة ينص على راويها الأول ـ أي مصدرها ـ كلما اعتمد عليه. إلاّ أن الاختلاف بين الروايات لا يعني تضاربها في جميع الأحوال، فقد تضيف إحداها إلى ما أجمع عليه الرواة واقعة أو موقفاً أو تعليلاً طريفاً يثري الرواية العامّة ويدقّقها. وهنا رأينا أن نقوم بعملية تركيب ندرج بها ذلك الخبر في مساق الأحداث. وربما اعتمدنا هذه الأخبار في إعادة بناء الرواية. فمن ذلك أن قصة كثير وعزة ـ وهي ضعيفة فنياً لأنها لم ترتقِ إلى مستوى البنية المتصلة، وإنما ظلت قائمة على أخبار متقطعة ـ لم يُذكر لنا فيها أنّ أهل عزّة قد زوّجوها. غير أننا نجد فيها خبراً يبدو مصنوعاً، يسأل فيه عبد الملك بن مروان كثيراً عن أعجب خبر له مع عزة، فيجيبه: «حججت سنة من السنين وحجّ زوج عزة بها...»[1]، وهذا الخبر يصف لقاء كثير بعزة، إلاّ أننا نستغله في مستوى الأحداث والوظائف استغلالاً مضاعفاً: فنأخذ منه تزويج عزة وافتراق الحبيبين من جهة، واجتماعهما في لقاء خاطف بعد التزويج من جهة أخرى.

وقد حاولنا أن نترسّم الروايات العذرية في كتاب «الأغاني» لنستخرج منها الوظائف الرئيسية التي تقوم عليها. وجعلنا إمامنا في هذا البحث فلاديمير بروب (1895 ـ 1970) الذي فحص عن ثوابت الخرافات الروسية العجيبة، فوجدها في الوظائف التي عرّفها بكونها «عمل الشخصية منظوراً إليه من حيث دلالته في سياق الحبكة»[2]. على أننا لا نريد أن نستنسخ نموذج بروب استنساخاً، وإنما نريد الاستهداء بمنهجه في وصف حلقات الرواية العذرية. فلم نلزم أنفسنا بعدد الوظائف التي عثر عليها ـ وهي إحدى وثلاثون وظيفة ـ ولا بتسمياتها ولا برموزها. واعتمدنا

(1) م. ن، ج 9، ص 29.

(2) فلاديمير بروب: بنية الخرافة، ص 31 (بالفرنسية).

نصوصنا في تبين الأحداث التي رأينا أنها تشكل مفاصل الرواية العذرية. وأطلقنا عليها أسماء سعينا قدر الإمكان إلى جعلها واضحة دقيقة، إلا في بعض الحالات التي آثرنا أن نستخدم أسماء يمكن أن تدخل ضمنها أحداث متنوّعة كما سنرى.

أما المدوّنة المعتمدة فتضم اثنتي عشرة رواية عذرية أبطالها مجنون بني عامر، وابن ميادة (تـ 149 هـ) والصمّة القشيري (تـ 95 هـ)، ووضاح اليمن (تـ نحو 90 هـ)، وعبد الله بن علقمة (تـ قبل 10 هـ) وجميل بن معمر، وكثير عزة، والمرقّش الأكبر، وقيس بن ذريح، وتوبة بن الحميّر (تـ 85 هـ) وعبد الله بن العجلان، وعروة بن حزام. وبين هذه الروايات مشابه كثيرة تتجلّى في حضور عدد من الوظائف في أغلبها، وفي تنازعها الأشعار والمواقف حتى إن أبا الفرج يجد نفسه مضطراً في بعض الأحيان إلى التنبيه إلى أن الشعر المذكور كان قد نُسِب إلى شاعر آخر في خبر آخر. على أنه يوجد غير هؤلاء شعراء عشاق نذكر منهم المرقش الأصغر، والأحوص، ويزيد بن الطثرية، والعباس بن الأحنف، إلا أننا لم نجعلهم ضمن مدوّنتنا لأن الأخبار التي ساقها عنهم أبو الفرج، وإن كانت لا تتعارض مع بعض الوظائف التي حدّدنا، لا تنطوي إلا على مرحلة واحدة من مراحل القصة. فلا نستطيع أن نعتمدها لبيان وظائف الرواية العذرية.

غير أن هذا الاستبعاد لا يعني أن الروايات الباقية قد توفرت في كل منها جميع الوظائف المستخرجة. فنحن لا نجد من بينها إلا رواية واحدة ضمّت جميع الوظائف، هي رواية قيس بن ذريح. أما الروايات الأخرى فأقربها إلى الكمال رواية عروة بن حزام، ثم رواية المرقش الأكبر، وبعدها روايات المجنون وجميل وعبد الله ابن العجلان. فهل يحقّ لنا أن نجد في هذا تفسيراً لسرّ إعجاب المعاصرين بقصة قيس بن ذريح وتفضيلهم إياها على سائر قصص الشعراء العشاق؟ نعم، طبعاً نعم، فهذا طه حسين يقول عنها: «أما هذه فقصة جيّدة حقاً، لا ينبغي أن تقرن إلى هذا السخف الذي تحدّث الرواة به عن المجنون، ولا إلى هذا الفتور الذي ذكروا به حب جميل. وما أظن إلا أن واضع هذه القصة قد امتاز من الذين وضعوا أنواع القصص الغرامية بشيء من الإجادة والبراعة لم يُسبق إليه ولم يُلحق فيه»[1]. غير أن طه حسين يكاد يحصر قيمة هذه القصة في بعد صاحبها عن الخيال، واستلهامه الواقع الإنساني، وانصرافه عن التكلف، وإجادته الوصف والربط بين الأحداث، فيقول: «أما هذه

(1) طه حسين: حديث الأربعاء، ج 1، ص 208.

القصة التي نحن بإزائها، فقد وفّق صاحبها إلى حسن التأليف وحسن الذوق، ووصف فيها أشياء تجدها في الحياة اليومية الواقعة وأتقن وصفها، حتى إن قصته لتجد في نفسك صدى قوياً وتحملك على أن تقول: إن هذا لحقّ وإن هذا لجيّد. ذلك أنّه لم يلتمس أخباره وحوادثه في السماء ولا في الهواء، وإنما التمسها بين الناس في حياتهم اليومية، وفي صلاتهم المألوفة، وفي عواطفهم التي تمثل ما يجدون من حسّ وشعور»[1].

فما هي الوظائف التي توفّرت في هذه الروايات؟ وكيف تجسّدت في كل منها؟ لقد أوقفنا البحث على خمس عشرة وظيفة، سنعمل على استعراضها واحدة واحدة، محاولين أن نبيّن مظاهر التماثل بين الروايات في وجود هذه الوظائف فيها، وفي صور تحققها، مشيرين إلى كثافة حضور الوظيفة أو ندرتها. وقد رتبنا هذه الوظائف بحسب ورودها في النّصّ أحياناً، ووفق ما نستنتجه ممّا لم يقع التصريح به في إبانه أحياناً أخرى.

1 ـ التعارف:

تنطلق القصص التي اعتمدنا في مدوّنتنا من التعارف بين الحبيبين. ولم تسكت عن هذا الجانب إلا اثنتان هما قصة وضاح اليمن وقصة توبة بن الحمير. أما في بقية القصص، فإن التعارف يشار إليه عادة بوجود صلة قربى بين العاشقين تمكّنهما من أن يتعارفا منذ الصبا. فإن لم يكونا ابني عمومة فإنهما ينتميان إلى قبيلة واحدة: كذلك كانت هند من قوم عبد الله بن العجلان، وأم حجدر من عشيرة ابن ميادة، وريا ابنة عم الصمة القشيري، وأسماء ابنة عم المرقش الأكبر، وعفراء ابنة عم عروة بن حزام وقد ربّيا معاً في بيت واحد. أما بثينة فقد ذكر نسبها، ووقعت الإشارة إلى أنها «تلتقي هي وجميل في حنّ من ربيعة في النسب»[2]. وهذا ما يظهر لنا حين ننظر في نسب المجنون وليلى. فهو «قيس بن الملوّح بن مزاحم بن عدس بن ربيعة بن جعدة ابن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة» وهي «ليلى بنت سعد بن مهدي بن ربيعة بن الحريش بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة». ولذلك قال أحد الرواة إنّ قيساً «كان يهوى امرأة من قومه يقال لها ليلى»[3]. وبهذا نفهم السبب الذي حدا أمّ

(1) م. ن، ج 1، ص ص 208 ـ 209.

(2) الأصبهاني: الأغاني، ج 8، ص 92.

(3) م. ن، ج 2، ص ص 1 ـ 4 ـ 5.

عبد الله بن علقمة إلى أن تنكر طلبه الزواج من حبيشة، وتدعوه إلى أن يتزوج من ابنة عمه، معللة ذلك بأنها أجمل. وكذلك كان شأن قيس بن ذريح مع أبيه، فحين سأله أن يزوجه لبنى قال له: «يا بنيّ، عليك بإحدى بنات عمّك فهن أحقّ بك. وكان ذريح كثير المال موسراً، فأحبّ ألا يخرج ابنه إلى غريبة»[1].

ومن هنا يتجلّى لنا أن الرابط الدموي ماثل في هذه الروايات إما بين العاشقين وإما باعتباره أساساً من أسس الترابط ينبغي إقراره. على أن الدّم يشار إليه في هذه الوظيفة أيضاً من خلال النحر. فقيس بن ذريح يمرّ بخيمة لبنى يستسقي فتسقيه وتسأله أن ينزل. وحين يعود أبوها ينحر له ويكرمه. والمجنون يعقر ناقته لنسوة كانت بينهن ليلى، فيراها ويعجب بها. وكثير يسأل النسوة عن الماء فترشده عزة. ثم تسأله أن يبيع النسوة كبشاً نسيئة فيفعل. وتنفرد رواية جميل بجعل التعارف بينه وبين بثينة وليد السباب الذي ينشأ عن تنفيرها إبلاً له حين كانت وجارة لها واردتين الماء. ثم رآها وقد تزينت في يوم عيد فعشقها. والحاصل أن وظيفة التعارف كثيراً ما تتمّ في إطار مائي قد يتخذ شكل الدّم أحياناً.

أما المحبوبة فهي في أغلب الروايات صغيرة. فبثينة فعلت ما فعلت «وهي إذ ذاك جويرية صغيرة»[2]. وعزة كانت حين لقيها كثير «جارية حين كعب ثدياها»[3]. وتوفي والد عروة وتركه «صغيراً في حجر عمّه [...] وكانت عفراء تربأ لعروة، يلعبان جميعاً، ويكونان معاً، حتى ألف كل منهما صاحبه»[4]. وكان قيس بن الملوح وليلى صغيرين حين علق كل منهما الآخر، ولذلك يقول: [من الطويل]

تَعَلَّقْتُ لَيْلَى وَهْيَ ذَاتُ ذُؤَابَةٍ ... وَلَمْ يَبْدُ لِلأَتْرَابِ مِنْ ثَدْيِهَا حَجْمُ
صَغِيرَيْنِ نَرْعَى الْبَهْمَ يَا لَيْتَ أَنَّنَا ... إِلَى الْيَوْمِ لَمْ نَكْبَرْ وَلَمْ تَكْبَرِ الْبَهْمُ[5]

وقد يُذكر سنّ العاشق كناية عن سنّ المعشوقة. فمن ذلك أن عبد الله بن علقمة خرج مع أمّه لتزور جارة لها «وهو مع ذلك غلام يفعة دون المحتلم»[6]. فكأن بداية قصة الحب بداية الحياة أو بداية الكون، ولهذا رأيناها مرتبطة بالماء وبالدّم.

(1) م. ن، ج 9، ص 182.
(2) م. ن، ج 8، ص 98.
(3) م. ن، ج 9، ص ص 25 ـ 26.
(4) م. ن، ج 24، ص 146.
(5) م. ن، ج 2، ص 11.
(6) م. ن، ج 7، ص 280.

2 ـ الحبّ:

وهذه وظيفة رئيسية لا تخلو منها رواية من هذه الروايات، لا بل إن الحب أمرٌ شائع في كل الروايات ظاهر في كل أطوارها. ولا عجب فهو محورها ومركز استقطابها. يبدو الحب في بعض هذه القصص نتيجة طبيعية للعشرة الطويلة، وهذا ما حدث بين المجنون وليلى وبين عروة وعفراء. ولكنه يبدو في أكثرها ناشئاً عن صدمة مفاجئة، يحدث دون تمهيد، وينزل على صاحبه أو صاحبيه نزول الصاعقة. إنه قَدَر لا مردّ له. على هذا النحو كان لقاء قيس ولبنى قوة قاهرة لكليهما: «وكانت امرأة مديدة القامة شهلاء حلوة المنظر والكلام، فلما رآها وقعت في نفسه [...] فانصرف قيس وفي قلبه من لبنى حرّ لا يطفأ [...] ثم أتاها يوماً آخر وقد اشتدّ وجده بها، فسلّم فظهرت له وردّت سلامه وتحفّت به؛ فشكا إليها ما يجد بها وما يلقى من حبها، وشكت إليه مثل ذلك فأطالت، وعرف كل واحد منهما ما له عند صاحبه»[1]. وكذلك علق كثير عزة منذ رآها وسألته الكبش «فأعطاها كبشاً وأعجبته»، ورافقته لترشده إلى الماء «فأرشدته وأعجبته»[2]. وكذلك أحب عبد الله بن علقمة حبيشة، ففي أول زيارة له إلى بيتها «لما رآها أعجبته ووقعت في نفسه»، وبعد يومين «وجد حبيشة قد زُيّنت لأمر كان في الحي فازداد بها حباً»[3]. وكذلك كان أمر جميل مع بثينة، فقد «سبّها جميل، فافترت عليه، فمَلُح إليه سبابها». ثم رآها يوم العيد في جمع من النساء «فرأى منهن منظراً وأعجبنه، وعشق بثينة». وقد كان هذا العشق بادياً إلى حدّ أن فتيان حي بثينة «عرفوا في. ـره ـ بّ بثينة»[4].

إن حديثنا عن هذه الوظـ ـ مرتبط ببداية العلاقة بين العاشقين. أما التعبير عن الحب في هذه الروايات فليس وقفاً على بداياتها. كما أن بعض الروايات لا تحدثنا عن ظروف التعارف بين الحبيبين ولا عن بدء الحب بينهما. فتوبة «كان يتعشق ليلى»[5]، ووضاح «كان يهوى امرأة من أهل اليمن يقال لها روضة [...] فذهبت به كل مذهب»[6]، والمرقّش الأكبر «عشق ابنة عمه أسماء [...] وهو غلام»[7]. والصمّة القشيري «هوي امرأة من قومه ثم من بنات عمّه»[8]. والمهمّ في هذا كلّه أن

(1) م. ن، ج 9، ص 182.
(2) م. ن، ج 9، ص ص 25 ـ 26.
(3) م. ن، ج 7، ص 280.
(4) م. ن، ج 8، ص ص ص 98 ـ 99.
(5) م. ن، ج 11، ص 204.
(6) م. ن، ج 6، ص ص 211 ـ 212.
(7) م. ن، ج 6، ص 129.
(8) م. ن، ج 6، ص 2.

الحبّ وظيفة لا بدّ من وجودها في هذه الروايات، وإن كان بعضها يعمد إلى الإشارة إليه إشارة خاطفة في البداية لأن التطوّر الذي ستشهده الأحداث بعد ذلك سيزيد ناره أواراً.

ومن الروايات ما يضخّم وظيفة الحبّ هذه، فيحوك حولها عدداً من المغامرات التي يراد منها تأكيد متانة الحب، أو إخراجه من الكمون إلى الفعل، أومن التضمين إلى التصريح. وفي هذا الباب يمكن أن نُدخل تلك الأخبار التي تصوّر لنا امتحاناً يمرّ به البطل العاشق ويثبت في نهايته صدق عاطفته. ونجد في رواية المجنون خير مثال على ذلك. فبعد أن عقر للنسوة ناقته قدم فتى اسمه منازل فأقبل عليه النسوة وتركن قيساً، فغضب وخرج من عندهن. فلما كان من غد تعرّض لهن من جديد «فدعونه إلى النزول وقلن له: هل لك في محادثة من لا يشغله عنك منازل ولا غيره؟ فقال: أي لعمري، فنزل وفعل مثل ما فعله بالأمس، فأرادت أن تعلم هل لها عنده مثل ما له عندها، فجعلت تُعرض عن حديثه ساعة بعد ساعة وتحدّث غيره. وقد كان علق بقلبه مثل حبها إياه وشغفته واستملحها، فبينا هي تحدّثه، إذ أقبل فتى من الحي فدعته وسارّته سرارا طويلاً، ثم قالت له: انصرف، ونظرت إلى وجه المجنون قد تغير وانتقع لونه، وشقّ عليه فعلها، فأنشأت تقول: [من الوافر]

كِلانَا مُظْهِرٌ لِلنَّاسِ بُغْضًا ... وَكُلٌّ عِنْدَ صَاحِبِهِ مَكِينُ

تُبَلِّغُنَا الْعُيُونُ بِمَا أَرَدْنَا ... وَفِي الْقَلْبَيْنِ ثَمَّ هَوًى دَفِينُ

فلما سمع البيتين شهق شهقة شديدة وأغمي عليه، فمكث على ذلك ساعة. ونضحوا الماء على وجهه حتى أفاق. وتمكّن حبّ كل واحد منهما في قلب صاحبه حتى بلغ منه كل مبلغ»[1]. وهذا المشهد يكاد ينحصر دوره في إثبات حبّ المجنون لليلى.

ومثل هذا ما نجده في قصة ابن ميادة وأم جحدر. فقد أحبّها ثم حدث بينهما ما عكّر صفو الحب. فأتاها يوماً وقال لها: «يا أم جحدر إن الوصل عليك مردود» فأجابته: «ما قضى الله فهو خير». ثم انتجع قوم أم جحدر بها، فكان ذلك امتحاناً لابن ميادة ومحكًا يعرف به صدق عاطفته. فلم يطق عليها صبراً، وقرّ رأيه على عقد

(1) م. ن، ج 2، ص 13 ـ 14. وانظر أيضاً خبر احتراق بُرد المجنون حين كانا يتحدثان وهو يدلّ على شدة هيامه بها حتى إنه لم يحسّ لذع النار لرقة حديثهما. م. ن، ج 2، ص ص 31 ـ 32.

صلح معها فقال لامرأة أخيه: «والله لئن دنت دارنا من أم جحدر لآتينّها ولأطلبن إليها أن تردّ الوصل بيني وبينها، ولئن ردّته لا نقضته أبداً»[1]. إن هذا الانقطاع في العلاقة بين العاشقين إنما جاء لبيان ما يسبّبه الفراق لأحدهما أو لكليهما من الألم والأسى، ومن ثم فهو وسيلة لبيان قوّة الحب وصموده في وجه الصعاب.

على أنّ هذه الحالات ربما وُظّفت في غرض معاكس للذي ذكرنا. وتُوفّر لنا قصّة كثير مثالاً طريفاً لذلك. فقد ذُكر فيها أنّ عزّة مرّت به يوماً وهي منتقبة تميس في مشيتها فلم يعرفها «فاتّبعها وقال: يا سيّدتي! قفي حتى أكلّمك فإني لم أر مثلك قط، فمن أنت ويحك؟ قالت: ويحك! وهل تركت عزّة فيك بقية لأحد؟ قال: بأبي أنت! والله لو أنّ عزة أَمَة لي لوهبتها لك. قالت: فهل لك في المخاللة؟ قال: وكيف لي بذلك؟ قالت: أنّى وكيف بما قلت في عزة؟! قال: أقلبه فأحوّله إليك. فسفرت عن وجهها ثم قالت: أغدراً يا فاسق وإنك لهكذا! فأبلس ولم ينطق وبُهت»[2]. فهذا كثير يسقط في الامتحان ويُهتَك ستره فيعود بالخسران. ولعل هذا الخبر قد جاء تجسيداً وسردنة لما تناقلَه الرواة عن كثير من أنه كان يكذب، وكان «مدّعياً ولم يكن عاشقاً». وبهذا يمكن أن نفهم تحرّج أبي الفرج في إيراد هذا الخبر إذ قال في مستهلّه: «ومما وجدناه في أخباره ولم نسمعه من أحد أنه...»[3]. والراجح أن الرواة تحيّروا في شأن كثير كيف يمكن أن يجتمع فيه حبّ عزة وجريه وراء الجمال أنّى كان، فاخترعوا أخباراً في ذلك جعلوا عزة في أحدها تقول لبثينة: «تصدّي لكثير وأطمعيه في نفسك حتى أسمع ما يجيبك به. فأقبلت إليه وعزة تمشي وراءها مختفية؛ فعرضت عليه الوصل؛ فقاربها ثم قال: [من الطويل]

رَمَتْنِي عَلَى عَمْدٍ بُثَيْنَةُ بَعْدَمَا ... تَوَلَّى شَبَابِي وَازْجَحَنَّ شَبَابُهَا

[...] فكشفت عزة عن وجهها: فبادرها الكلام ثم قال:

وَلَكِنَّمَا تَرْمِينَ نَفْسًا مَرِيضَةً ... لِعَزَّةَ مِنْهَا صَفْوُهَا وَلُبَابُهَا

فضحكت ثم قالت: أوْلى لك بها قد نجوت. وانصرفتا تتضاحكان»[4].

فهذا الخبر بيّن الصنعة، إذ كيف يكون كثير راوية جميل وتلميذه ولا يتردّد في النسيب ببثينة؟ وكيف ترضى عزة بأن يقول كثير شعراً في غيرها ثم تغفر له ذلك؟

(1) م. ن، ج 2، ص 237.
(2) م. ن، ج 9، ص 32.
(3) م. ن، ج 9، ص 32.
(4) م. ن، ج 9، ص 36.

وكيف يصحّ أن تكون بثينة شابّة وكثير قد تولى شبابه، فكيف إذن كان جميل عندما عشقها؟ إن ما يهمّنا في هذا الخبر ليس الإمساك بالحقيقة التاريخية، وإنما هو إدراك الدافع الذي حدا بالراوي إلى وضعه، وهو ـ في رأينا ـ دافع مزدوج شقه الأول أن يبيّن قلّة وفاء كثير، وشقه الثاني أن يترك له فرصة البقاء عاشقاً حتى تتواصل مغامراته.

3 ـ المخالفة:

ينجرّ عن الحب عادة عمل يقوم به العاشق يؤخذ عليه. وعلى هذا العمل مدار الوظيفة الثالثة في رواية الحب، ونصطلح عليها بالمخالفة. ولمّا كان أبطال هذه الروايات جميعاً شعراء، فمن الطبيعي أن تتخذ هذه الوظيفة عندهم صورة الشعر الذي يقال في الحبيبة ويعرفه الناس، فتفتضح به الحبيبة في أهلها، ويفتضح به قومها في العرب. إن ثماني روايات في مدوّنتنا تذكر هذا العمل بوصفه حدثاً لاحقاً بالحبّ تترتب عليه نتائج في العلاقة بين الحبيبين. فقد «شهر أمر المجنون وتناشد الناس شعره في [ليلى]»[1]. وكان ابن ميادة «ينسب بأم جحدر»[2]، وقد اشتهر أمر وضاح مع روضة لأنه كان «يشبّب بها في شعره»[3]. وعبد الله بن علقمة «كثر قوله للشعر في [حبيشة]»[4]. وجميل «نسب بـ[بثينة]»[5]. وكثير «نسب بـ[أمّ الحويرث]»[6]. وهي عشيقته بعد عزة. وقيس بن ذريح «جعل ينطق بالشعر في [لبنى] حتى شاع وروي»[7]. وكذلك كان توبة «يتعشق ليلى ويقول فيها الشعر»[8]. ويُربَط في أغلب هذه الروايات بين شعر النسيب واشتهار الحبّ. ولعلّ سبب اعتبار هذا الحدث مخالفة أنه يُوجَد دون صلة شرعية بين الحبيبين هي الزواج.

فإذا لم يُذكر النسيب وقعت الإشارة إلى أمر آخر يمكن أن يضاهيه. وقد وجدنا في روايتين أخريين حديثاً عن فقر العاشق بوصفه «مخالفة» يتعين عليه أن يتجاوزها. فلعروة بن حزام خصال حسنة «ولكنه ليس بذي مال [بل هو] معدم»[9]، وكذلك كان الضّمّة القشيري، وإن ذكر الرواة أن أباه كان موسراً غير أنه «لم يُعِنْه

(1) م. ن، ج 2، ص 14.
(2) م. ن، ج 2، ص 200.
(3) م. ن، ج 6، ص 213.
(4) م. ن، ج 7، ص 281.
(5) م. ن، ج 8، ص 99.
(6) م. ن، ج 8، ص 34.
(7) م. ن، ج 9، ص 182.
(8) م. ن، ج 11، ص 204.
(9) م. ن، ج 24، ص 147.
(10) م. ن، ج 6، ص 7.

بشيء»[1]. أما المرقش الأكبر فإنه كان «غلاماً» لم يشتدّ عوده ولم يُعرَف بالبأس. ولئن لم يذكر أنه كان فقيراً فإن باقي قصته يشير إلى فقره من طرف خفي، إذ ذكر أن الرجل الذي خطب أسماء من أبيها قد «أرغبه في المال»[2].

والجامع بين هذه الحالات كلها أنّ عمل العاشق ـ أي تشبيبه ـ، أووضعه المادي ـ أي فقره ـ، أو وضعه الاجتماعي ـ أي صغر سنّه وقلة شأنه ـ، ليست مخالفة إلا من وجهة نظر أهل الحبيبة، وأبيها خاصة. وهي تقدّم عادة بوصفها عائقاً دون الوصل. ولذلك تنجرّ أحياناً عن شروط تصدر عن الأب أوعن الأمّ. ويحدث ذلك حين تكون الصفة غير دائمة، فيُطلَب من العاشق أن يحضر مهراً غالياً أو يصبح ذا بأس. أما في حالة الشعر فإن اشتهاره بين الناس لا يدع مجالاً للحلّ. ومن ثم فإن التشبيب «خطأ» قلما يغتفر للعاشق. وهذا ما يفسّر انعدام الزواج بينه وبين حبيبته في أغلب الحالات.

ومن الروايات التي يذكر فيها التشبيب ولكنه لا يضطلع بدور المخالفة الرئيسية رواية قيس بن ذريح. ففيها إشارة إلى أنه شبّب بلبنى. ولكن هذا التشبيب لم ينجرّ عنه كبير خطر، ولم يتسبّب في الفصل النهائي بين العاشقين. ولذلك يؤتى بمخالفة أخرى تتمثل في خروج قيس عن التقاليد القبلية وتعلقه بفتاة غريبة وعزوفه عن بنات عمّه، مما يمهّد الطريق لتبذير ثروة أبيه.

4 ـ العقاب:

تثير هذه الوظيفة بعض الإشكال، فهي تكون في عدد من الروايات من جنس المخالفة، ولكنها تأتي في روايات أخرى مضخّمة تتجاوز نطاق المخالفة حتى إنها لتتماهى والوظيفة السادسة التي يُفترض أن تكون ناتجة عن سابقتها كما ينتج الردّ عن الطلب. فمن النوع الأول ما نجده في رواية قيس بن ذريح من أنه سأل أباه أن يخطب له لبنى من أبيها «فأبى عليه [. . .] فأتى أمّه فشكا ذلك إليها، واستعان بها على أبيه، فلم يجد عندها ما يحب»[3]. وقد يكون العقاب مباشراً بسيطاً آنياً من قبيل ما نجده في ردّ الفعل الذي صدر عن أم عبد الله بن علقمة لما سمعت ابنها ينشد أشعار النسيب في حبيشة، فقد «تغافلت عنه وكرهت قوله [و] زجرته»[4]. وقد يتخذ

(1) م. ن، ج 6، ص 129.
(2) م. ن، ج 9، ص 182.
(3) م. ن، ج 7، ص ص 280 ـ 281.

العقاب شكل الحجب. فهذا عبد الله بن علقمة أكثر من ذكر حبيشة في شعره حتى تناهى الخبر إلى أهلها فـ«حجبوها عنه»[1]. وهذا المجنون شبّب بليلى «وشُهر بها وعُرف خبره فحُجبت عنه»[2]. وهذا جميل ضرب موعداً لبثينة ولكن أهلها «حرسو[ها] ومنعوها من الوفاء بوعده»[3]. وقد يأتي العقاب في صورة مواجهة تبدو في المنع والتهديد، إذ «لما علم أهلُ [ليلى] بعشق [المجنون] لها، منعوه من إتيانها وتقدّموا إليه»[4]. وكذلك كان أمر جميل مع أهل بثينة «وكانوا أصلافاً غُيُرا، فرصدوه بجماعة نحوٍ من بضعة عشر رجلاً [...] فبينا هو على تلك الحال إذ وثب عليه القوم»[5]. وتبدو المواجهة أيضاً في صورة أكثر تواتراً من سابقتها هي شكوى العاشق إلى السلطان أو الوالي أو الأمير وإهدار دمه. لقد وجدنا هذا في قصة توبة حين غضب أهل ليلى منه و«تظلموا منه إلى السلطان فأهدر دمه»[6]، وفي قصة المجنون التي تكرّر فيها أن أهل ليلى «استعدَوا السلطان عليه فأهدر دمه»[7]، وفي قصة جميل الذي ضاقت به الدنيا «لما نذر أهل بثينة دمـ[ـه] وأهدره لهم السلطان»[8]. وفي هذه القصة كان بهذا اللون من العقاب احتفاء كبير، حتى إن الوالي نفسه أصبح طرفاً في الصراع وسعى إلى القبض على جميل. فأهل بثينة: «استعدوا عليه عامر بن ربعي بن دجاجة، وكانت إليه بلاد عذرة، وقالوا: يهجونا ويغشّى بيوتنا وينسب بنسائنا! فأباحهم دمه، وطُلِبَ فهرب منه»[9]. وفي رواية أخرى أن الشكوى إلى السلطان قد وقعت مرتين. فقد أهدر السلطان «دم جميل لرهط بثينة إن وجدوه قد غشي دُورَهم. فحذِرهم مدّة، ثم وجدوه عندها فأعذروا إليه وتوعّدوه، وكرهوا أن ينشب بينهم وبين قومه حرب في دمه، وكان قومه أعز من قومها، فأعادوا شكواه إلى السلطان، فطلبه طلباً شديداً، فهرب إلى اليمن»[10].

إن إهدار الدّم ـ وفيه تقاطع جلي بين محور الحبّ ومحورالسياسة ـ يبدو لنا من خلال الروايات التي اعتمدنا إجراء زجرياً هدفه الفصل بين المتحابّين، ولكنه لا يصل إلى التنفيذ. إذ لو نُفّذ هذا القرار لانتهت قصة الحب. ولهذا كان العقاب في بعض هذه الروايات مقنّعاً، ظاهره اشتراط مهر، وباطنه إبعاد العاشق عن حبيبته. ولعل

(1) م. ن، ج 7، ص 281.
(2) م. ن، ج 2، ص 40.
(3) م. ن، ج 8، ص 100.
(4) م. ن، ج 2، ص 43.
(5) م. ن، ج 8، ص 99.
(6) م. ن، ج 11، ص 205.
(7) م. ن، ج 2، ص ص 16 ـ 17 ـ 18 ـ 26.
(8) م. ن، ج 8، ص 109.
(9) م. ن، ج 8، ص 123.
(10) م. ن، ج 8، ص 124.

أسطع مثال على ذلك ما حدث لعروة فهو ابن عم عفراء وقد رُبّيا معاً، ووعده عمه بها منذ سن الصبا. فلما بلغ مبلغ الرجال تعلل عمّه عليه بقلة ماله وقال له: «يا بني، أنت معدم، وحالنا قريبة من حالك [...] وأمها قد أبت أن تزوّجها إلا بمهر غال، فاضطرب واسترزق الله تعالى»[1]. ويدلّ سياق الحديث ههنا على أن المهر تعلّة لإبعاده وعقاب له على إصراره، إذ أن أحد الموسرين كان يريد عفراء آنذاك. وكذلك كان أمر المرقش الأكبر، فقد قال له عمه أبو أسماء: «لا أزوّجك حتى تُعرَف بالبأس [...] وكان يعده فيها المواعيد»[2]. وفي رواية كثير مع أم الحويرث تصريح بهذا الربط المباشر بين الشرط وقصد الإبعاد. فقد جاء فيها: «تعشق كثير امرأة من خزاعة يقال لها أمّ الحويرث، فنسب بها، وكرهت أن يسمّع بها ويفضحها كما سمّع بعزة، فقالت له: إنك رجل فقير لا مال لك فابتغ مالاً يعفّي عليك، ثم تعال فاخطبني كما يخطب الكرام»[3].

إن مثالَيْ عروة والمرقّش يدخلان في النوع الثاني من العقاب. وذلك أن الشرط لا يعدو أن يكون جواباً على خطبة. وبهذا نجد أنفسنا وقد انتقلنا رأساً إلى الوظيفة السادسة وهي الردّ. ولنا في رواية ابن ميادة مثال على هذا أكثر وضوحاً. فقد جاء فيها أنه كان «ينسب بأم جحدر بنت حسان المريّة، إحدى نساء بني جذيمة، فحلف أبوها ليخرجنّها إلى رجل من غير عشيرته ولا يزوجها بنجد»[4]. إننا نجد قرار الأب في هذه الحالة مضخماً. وهو قرار لا يترك مجالاً للخطبة وعليها مدار الوظيفة الخامسة. فما إن بلغه نبأ التشبيب بابنته حتى حدّد مستقبلها، بأن حال دونها ودون الزواج برجل من عشيرتها. فعقاب العاشق أدّى إلى عقاب رجال العشيرة والبنت. ومن الطبيعي أن يختلط هذا العقاب بالردّ لأنه صارف لا محالة العاشق عن خطبة حبيبته من جهة، وممهد لتزويج هذه الحبيبة من غير العاشق من جهة أخرى.

5 ـ الطلب:

إذا كان التشبيب مخالفة لأنه قائم على علاقة بين الرجل والمرأة غير شرعية، ومن ثم فإنه يتسبّب في العقاب، فإن تعبير العاشق عن رغبته في الرجوع إلى كنف الشرعيّة يمثل محور هذه الوظيفة الخامسة التي وسمناها بالطلب. وقد اتّخذ هذا

(1) م. ن، ج 24، ص 147.
(2) م. ن، ج 6، ص 129.
(3) م. ن، ج 9، ص 34.
(4) م. ن، ج 2، ص 270.

الطلب في ثمان من روايات مدوّنتنا صورة واحدة هي الخطبة. وجاءت العبارة عنها في أغلب الحالات موجزة. فهي في روايات المجنون ووضاح وجميل «خطبها»[1]، وهي في روايات الصمّة والمرقّش وتوبة «خطبها إلى أبيها»[2]. ولئن لم ترد كلمة الخطبة في رواية عروة فقد ورد ما يدلّ عليها، وهو توسّط عروة بعمته التي ذهبت إلى أخيها أبي عفراء وقالت له: «يا أخي، قد أتيتك في حاجة أحبّ أن تحسن فيها الردّ، فإن الله يأجرك بصلة رحمك فيما أسألك. فقال لها: قولي، فلن تسألي حاجة إلا رددتك بها. قالت تزوّج عروة بن أخيك بابنتك عفراء»[3]. وفي هذه الصيغة جاءت الخطبة ممسرحة.

وتنفرد رواية قيس بن ذريح بتطوير هذه الوظيفة وتكرارها إياها على نحو درامي. فقد كنا أشرنا خلال الوظيفة الرابعة، وهي العقاب، إلى امتناع أبي قيس وأمه عن خطبة لبنى، وعلّلنا ذلك باقتراف قيس مخالفة تمثلت في انصرافه عن بنات عمه. وإن نحن نظرنا في المسألة من خلال هذه الوظيفة الخامسة بان لنا أن رواية قيس وضعت عراقيل تحول دون تحقيق الخطبة قبل أن تصل بها إلى والد لبنى. وبهذا فإن الخطبة في حد ذاتها أصبحت في هذه الرواية معضلة يتعين على قيس أن يعمل على إيجاد حلّ لها. وقد سار الحلّ في اتجاهين: أحدهما أن يجد بديلاً عن أبيه للقيام بالخطبة، وقد عثر على هذا البديل في شخص الحسين بن علي بن أبي طالب (تـ 61 هـ). فقد أتاه فوجد معه ابن أبي عتيق «فشكا إليهما ما به وما ردّ عليه أبوه. فقال له الحسين: أنا أكفيك. فمشى معه إلى أبي لبنى. فلما بَصُرَ به أعظمه ووثب إليه وقال له: يا ابن رسول الله، ما جاء بك؟ ألا بعثت إلي فأتيتك! قال: إن الذي جئتُ فيه يوجب قصدك. وقد جئتك خاطباً ابنتك لبنى لقيس بن ذريح»[4]. إلا أن هذه الخطبة لم تُرْض أبا لبنى فأصرّ على أن يكون أبو قيس الخاطبَ. ومن هنا جاء الاتجاه الثاني. فقد اصطحب قيسٌ الحسينَ إلى أبيه ليقنعه بالقيام بالخطبة. «فأتى الحسين رضي الله عنه ذريحاً وقومه وهم مجتمعون، فقاموا إليه إعظاماً له، وقالوا له مثل قول الخزاعيين. فقال لذريح: أقسمت عليك إلا خطبت لبنى لابنك قيس. قال: السمع والطاعة لأمرك. فخرج معه في وجوه من قومه حتى أتوا لبنى، فخطبها ذريح على

(1) م. ن، ج 2، ص 14، ج 6، ص 212، ج 8، ص 108.
(2) م. ن، ج 6، ص 2 ـ 129، ج 11، ص 204.
(3) م. ن، ج 24، ص ص 146 ـ 147.
(4) م. ن، ج 9، ص 182.

ابنه إلى أبيها»[1]. ولعل رواية قيس قد اتخذت هذا المسار لأنها تريد أن تزحزح مركز القرار والحسم من والد البنت إلى والد العاشق. وفي ذلك تمهيد لباقي الأحداث.

أما الروايات الأربع التي لم نجد فيها ذكراً للخطبة، فإن نسيج الأحداث فيها يقتضي ألا تقع الخطبة. وقد كنا أشرنا إلى أن والد أم جحدر قد أقسم بألاّ يزوجها في قومها حين بلغه تشبيب ابن ميادة بها، فلم يعد بإمكان العاشق أن يقوم بالخطبة. أما كثير فإن أم الحويرث لما صرفته عنها وأعطته المواثيق بأنها ستنتظره رحل عنها، ولما رجع وجدها قد تزوجت. أما عبد الله بن العجلان فقد بدئت روايته وهو متزوّج، فكأن الخطبة ضمنية. وأما عبد الله بن علقمة فإنه قتل في سنّ مبكرة فلم يكن له متسع من الوقت للخطبة.

وعلى هذا النحو نرى أن الخطبة ـ سواء أُذْكِرت صراحة أم بطريقة ضمنية، وسواء أتحققت أم لم تتحقق ـ تمثل وظيفة رئيسية من وظائف الروايات العذرية. إلا أن رواية قيس بن ذريح هي التي وُفّقت ـ دون سائر روايات مدوّنتنا ـ إلى إخراج الخطبة من مجال التقليد الاجتماعي البسيط إلى مجال الفن، فوظّفتها توظيفاً مخصوصاً، وأودعتها ضروباً من الدلالات الاجتماعية والاقتصادية والدينية والسياسية، جعلت منها حدثاً درامياً بحق.

6 ـ الردّ:

تتفق تسعٌ من الروايات التي اعتمدنا على دفع أبي الحبيبة إلى رفض الطلب الذي تقدّم به العاشق للتزوج بها. إلا أن هذه الروايات قد اتخذت مسالك مختلفة في تحقيق الرفض. ولعل أكثر صوره بساطة ما نجده في رواية جميل الذي خطب بثينة «فمُنع منها»[2]، وفي رواية وضّاح حين خطب روضة «فامتنع قومها من تزويجه إياها»[3]، ورواية توبة حين خطب ليلى إلى أبيها «فأبى أن يزوّجه إياها»[4]. أما في حالات أخرى فإن الرفض جاء مقنّعاً بقبول زائف لأنه يرتبط بشرط يتعين على العاشق أن يفي به. وهو شرط يعسر تحقيقه أو يُتّخذ تعلّة لإبعاد العاشق حتى تتاح الفرصة لأبي المحبوبة في أن يزوّجها بمن يحب. فالصمّة القشيري خطب ريّا ابنة عمه من أبيها «فأبى أن يزوّجه إياها [. . .و] قال له: لا أزوّجها إلاّ على كذا وكذا

(1) م. ن، ج 9، ص ص 182 ـ 183.
(2) م. ن، ج 8، ص 108.
(3) م. ن، ج 6، ص 212.
(4) م. ن، ج 11، ص 204.

من الإبل»[1]. وقد حاول الصمّة أن يجيب عمّه إلى ما طلب، ولكن إبله كانت تنقصها واحدة، فرفضها العم، ورفض أبو الصمّة أن يزيده واحدة. وكذا كان موقف أبي أسماء مع المرقش، فإنه حين خطبها إليه «قال له لا أزوّجك حتى تُعرف بالبأس»[2]. وقد كان الرفض المقنّع نصيب كثير مع أمّ الحويرث، وعروة بن حزام الذي سعى إلى إقناع زوج عمه «فألطفها وداراها، فأبت أن تجيبه إلا بما تحتكمه من المهر، وبعد أن يسوق شطره إليها»[3]. أما ابن ميادة فإنّ قرار والد حبيبته تزويجها إلى رجل من غير عشيرته يُعَدّ رفضاً مسبّقاً، وحيلولة دون العاشق ودون خطبة الحبيبة أوالتزوج بها.

وقد يَرِدُ الرفض بطريقة غير مباشرة فيكون مقنّعاً بموقف الحبيبة. وتنفرد بهذه الصيغة رواية المجنون. فقد جاء فيها أن أهل ليلى لم يصرّحوا برفضهم خطبة قيس لها، إلا أنهم حين تقدّم لخطبتها مع ورد العقيلي «دخلوا إليها فقالوا: والله لئن لم تختاري ورداً لنمثّلنّ بك [. . .] فاختارت ورداً فتزوجته على كره منها»[4]. إلاّ أن هذا التنويع الطريف كأنه لم يستقرّ في سنّة الرواية العذرية، ولذلك زاحمته الصيغة القديمة التي تعزو الرفض إلى الأب لأنه صاحب الكلمة. فقد ذكر أبو عمرو الشيباني في روايته لقصة المجنون أنه «خطبها إلى أبيها فردّه وأبى أن يزوّجه إياها»[5].

والخصيصة الجامعة بين هذه الردود المتسمة بالرفض أنها نهائية لا تقبل المراجعة. لذلك يكون الرفض فاصلاً أبدياً بين الحبيبين، وإن اجتمعا فخارج رباط الزواج. ومن المهم أن نلاحظ أن الحائط الفاصل بين الوظيفة الرابعة ـ أي العقاب ـ والوظيفة السادسة ـ أي الردّ ـ كثيراً ما يكون واهياً متداعياً للسقوط، فتندمج الوظيفتان في واحدة. ذلك أن تشبيب العاشق بالمعشوقة وإلمامه بها دون أن يكون بينهما رباط شرعي هوالدافع الحقيقي لرفض الخطبة إن وقعت. وبهذا تكون الخطبة محاولة من قِبَل العاشق لنيل الرضى والعفو ممن أساء إليهم. ولكن أهل الحبيبة لا ينزلون عند رغبته لأن في ذلك فضيحة لهم. وهم يخشون ـ إن وافقوا على الزواج ـ أن يقال إنهم فعلوا ذلك خشية الوقوع في فضيحة أكبر، ومن ثم يكون الرفض ناتجاً عن المخالفة، وإن اتخذ صورة الرد على الطلب المتمثل في الخطبة.

(1) م. ن، ج 6، ص ص 2 ـ 7.
(2) م. ن، ج 6، ص 129.
(3) م. ن، ج 24، ص 147.
(4) م. ن، ج 2، ص 14.
(5) م. ن، ج 2، ص 40.

والحالة الوحيدة التي ارتبط فيها الردّ بالقبول هي رواية قيس بن ذريح، وهي تقدّم نموذجاً طريفاً لتطوير هذه الوظيفة. فقد حافظت هذه الرواية في مرحلة أولى على السنّة السائدة التي تتمثل في رفض أبي الحبيبة الاستجابة لطلب العاشق. وتجلى ذلك في اعتذار الأب عن تلبية طلب الحسين بن علي إذ قال له: «يا ابن رسول إلله، ما كنا لنعصي لك أمراً، وما بنا عن الفتى رغبة، ولكنّ أحبّ الأمر إلينا أن يخطبها ذريح أبوه علينا وأن يكون ذلك عن أمره، فإنّا نخاف إن لم يسع أبوه في هذا أن يكون عاراً وسبّة علينا»[1]. وقد ارتكز الرفض على سنّة اجتماعية تتمثل في أن والد العاشق هو الذي ينبغي أن يتولى خطبة الحبيبة لابنه. وبهذا تغلبت القيم الاجتماعية على القيم الدينية الناشئة، ورفض طلب الحسين على قرابته برسول الله. إلا أن الرواية لا تلبث أن تكسر السنّة الروائية بإثبات السنّة الدينيّة. فتجعل والد قيس يرضخ لطلب الحسين ويخطب ليلى إلى أبيها، فيتحوّل الرفض الأول قبولاً. وينمّ هذا ـ في نظرنا ـ عن تردّد الراوي وتحرّجه في الحالتين كلتيهما: فرفض والد ليلى وساطة الحسين تعزيز لسنّة الرواية العذرية ومراعاة للقيم الاجتماعية وإن كان ذلك على حساب السلطة الدينية؛ إلا أن قبول أبي ليلى الخطبة قد انبنى على تعزيز القيم الاجتماعية ومراعاة السلطة الدينية، وإن كان قد أدّى إلى خرق السنّة الروائية. وكأننا بالراوي لم يستطع أن يكسر السنّة الروائية إلا بواسطة القيم الدينية. ومع ذلك فإنّ مهمّة هذه القيم الدينية لم تكن ميسورة، إذ فشل مسعاها في الطور الأوّل، ولم يقيّض لها النجاح إلا بعد ذلك. وبهذا ندرك وطأة السنّة الروائية وعسر خرقها الذي ينمّ عنه اتكاء الراوي على سلّم القيم المقدّسة واستعانته به على زحزحة التقليد الروائي عن موضعه. ومهما يكن من أمر فإن مسلك الرواية اللاحق سيعتريه تغير نحاول أن نتبيّنه فيما يلي.

7 ـ الزواج:

وهو أهمّ تحوّل ينجرّ عن قبول الخطبة. غير أنه لما كان القسم الأكبر من الروايات التي تكوّن مدوّنتنا يتصف بالرد السلبي أي برفض الخطبة، فإن وظيفة الزواج نادرة لا نجدها إلا في روايتين. فالأولى رواية عبد الله بن العجلان وهي تختصّ ـ دون سائر الروايات التي ندرس ـ بأنها جعلت منطلق العلاقة بين العاشقين الزواج. ويترتب على هذا وجود أربع وظائف قبلها تدرك ضمنياً من خلال السياق، وهي التعارف والحب والطلب والرد. أما المخالفة والعقاب فلا نجد إليهما تلميحاً،

(1) م. ن، ج 9، ص 182.

وإن كنا نميل إلى افتراض حصول المخالفة، لأن ابن العجلان شاعر، فلا يُتصوّر أنه هوي هنداً ولم يشبب بها. على أن المرجّح أن ذلك لم يتسبّب له في عقاب، لأن خبره ينصّ في بدايته على أنه كان «سيداً في قومه وابن سيّد من ساداتهم، وكان أبوه أكثر بني نهد مالاً»[1]. فهل كان من قبيل الصدفة أن الرواية الأخرى التي حصل فيها الزواج بين العاشقين قد نصت هي أيضاً على أبا العاشق كان «كثير المال موسراً»[2]؟ وهل يجيز لنا ذلك أن نستنتج أن سلطة المال تبيح انتهاك المحرمات؟ قد يكون ذلك. ولكن ما يعنينا هنا هو أن وظيفة الزواج قد تحققت في الروايتين وأن ثراء الأب ومنزلته في قومه قد وجدت فيهما أيضاً.

على أن هذه الوظيفة السابعة قد كانت أكثر درامية في رواية قيس بن ذريح منها في رواية ابن العجلان. فهي هنا نتيجة لصراع مرير خاضه قيس ضدّ أهله وأهل لبنى كلّل بالنجاح، وهي هناك معطى أوّلي أُسقط ما قبله، ولم يقع الاهتمام إلا بما بعده. ورغم ذلك فإن العبارة عن هذه الوظيفة جاءت في الروايتين موجزة. فقد ذُكِر أن ذريحاً لما خاطبه الحسين بن علي نزل عند رغبته و «خرج معه في وجوه من قومه حتى أتوا لبنى فخطبها ذريح على ابنه إلى أبيها فزوّجه إياها، وزفت إليه بعد ذلك»[3]. والراوي مقتصد كأشدّ ما يكون الاقتصاد، ضنين بالتفاصيل كأشد ما تكون الضنانة. لا يحدثنا عن حفل العرس ولا يذكر لنا شيئاً عن المدّة الفاصلة بينه وبين الخطبة، وكأنه يتعجّل حصوله ليذكر ما وقع بعده. أما راوي قصة ابن العجلان فقد أعفى نفسه من هذا كله، إذ اكتفى بالإشارة إلى علاقة الزواج الرابطة بين عبد الله وهند، فقال: «وكانت هند امرأة عبد الله بن العجلان التي يذكرها في شعره امرأة من قومه من بني نهد»[4].

8 ـ المحنة:

لئن بدت هذه الوظيفة الثامنة في روايتي قيس بن ذريح وعبد الله بن العجلان على نحو جلي فإنها لم تقتصر عليهما، وإنما ظهرت أيضاً في شكل مغاير في روايات أخرى. وتتفق الروايتان الأوليان على جعل مدار المحنة التي يتعرّض لها العاشق وزوجه عدم الإنجاب. ففي قصة ابن العجلان أن هندا «مكثت معه سنين

(1) م. ن، ج 22، ص 237.
(2) م. ن، ج 9، ص 182.
(3) م. ن، ج 9، ص ص 182 ـ 183.
(4) م. ن، ج 22، ص 237.

سبعاً أو ثمانياً لم تلد. فقال له أبوه: إنه لا ولد لي غيرك، ولا ولد لك، وهذه المرأة عاقر، فطلّقها، وتزوّج غيرها»[1]. وفي قصة ابن ذريح قالت أمه لأبيه: «لقد خشيتُ أن يموت قيس وما يترك خلفاً. وقد حُرم الولدَ من هذه المرأة، وأنت ذو مال، فيصير مالك إلى الكلالة، فزوّجه بغيرها لعلّ الله أن يرزقه ولداً»[2]. ولئن اتفقت الروايتان في سبب المحنة وهي عدم الإنجاب، وفي بعض الظروف التي لابستها وأهمّها أن العاشق في الحالتين وحيد أبويه، وأن لأبيه ثروة يخشى عليها أن تتبدّد إن بقي بلا عقب، فإنّ بينهما فارقاً أساسياً يتمثل في أن عُقار المرأة علّة في رواية ابن عجلان، وتعلّة في رواية قيس. ولعل هذا التلوين المخصوص الذي يدخله الراوي على الوظائف وطرائق تحقيقها هو من العوامل التي تزيد حظ روايته من الفن. فالسبب الحقيقي للمحنة في رواية قيس غيرة الأم من لبنى لِمَا رأته من كلف ابنها بها وانصرافه عنها. «وكان أبرّ الناس بأمه، فألهته لبنى وعكوفه عليها عن بعض ذلك، فوجدت أمه في نفسها وقالت: لقد شغلت هذه المرأة ابني عن بِرّي»[3]. ومن ثم استغلت الأم مرض ابنها لتفرق بين الزوجين، ولتقنع زوجها بأنّ قيساً ربما يموت دون أن ينجب إن لم يتزوج غير لبنى.

ولكنّ هذا الاختلاف بين الروايتين يؤول بهما إلى الالتقاء مجدداً في رفض العاشق أن يلبي طلب أبيه. فهذا العجلان يقول لابنه عبد الله: «إنه لا ولد لي غيرك، ولا ولد لك، وهذه المرأة عاقر، فطلّقها وتزوّج غيرها. فأبى ذلك عليه»[4]. وهذا ذريح يخاطب ابنه فيقول له: «يا قيس، إنك اعتللت هذه العلة فخفت عليك ولا ولد لك ولا لي سواك. وهذه المرأة ليست بولود؛ فتزوّج إحدى بنات عمّك لعلّ الله أن يهب لك ولداً تقرّ به عينك وأعيننا. فقال قيس: ليست متزوجاً غيرها أبداً»[5]. وإذا كانت رواية ابن العجلان تقتصر على ذلك الطلب والرفض بإيجاز، فإن رواية قيس تطنب في وصف هذه المجابهة بين الابن وأبيه، وتسهب في عرض حلول الترغيب التي يرتئيها كل منهما. فالأب يسأل ابنه أن يتسرّى بالإماء إن لم يشأ أن يتزوّج على لبنى، والابن يطلب من أبيه أن يتزوّج هو، أو أن يسمح له بالرحيل عنه صحبة امرأته، أو بالرحيل دونها عساه يسلوها. ولكن الروايتين تلتقيان من جديد في تحدي

(1) م. ن، ج 22، ص 237.
(2) م. ن، ج 9، ص 183.
(3) م. ن، ج 9، ص 183.
(4) م. ن، ج 22، ص 237.
(5) م. ن، ج 9، ص 183.

الأب لابنه، واصطناعه موقفاً متصلباً لا يغيّره إلا إذا تراجع الابن عن قراره. فقد غضب العجلان على ابنه و«آلى ألا يكلمه أبداً حتى يطلّقها»[1]، وقال ذريح لابنه: «لا أرضى أو تطلّقها. وحلف لا يكنّه سقف بيت أبداً حتى يطلّق لبنى. فكان يخرج فيقف في حرّ الشمس، ويجيء قيس فيقف إلى جانبه فيظلّه بردائه ويصلى هو بحرّ الشمس حتى يفيء الفيء فينصرف عنه»[2]. وبهذا يتقاطع في الروايتين وفي شخصيتي العاشقين سجلاّن وواجبان: سجل البرّ وسجل الحب، وواجب البنوة وواجب الزوجية[3]. إلاّ أنّ الروايتين تعودان فتفترقان في تحديد المسلك الذي اتبع في كل منهما لإرغام الفتى على النزول عند رغبة أبيه. فقصّة عبد الله بن العجلان - وهو جاهلي - تجعل الأب يحتال على ابنه حين أنس منه سكراً، فقد «عمد إليه يوماً، وقد شرب الخمر حتى سكر، وهو جالس مع هند، فأرسل إليه أنْ صِرْ إليّ [. . . فـ] مضى إلى أبيه، فعاوده في أمرها، وأنّبه وضعّفه. وجمع عليه مشيخة الحي وفتيانهم، فتناولوه بألسنتهم، وعيّروه شغفه بها وضعف حزمه»[4]. أما قصة قيس بن ذريح - وهو إسلامي - فلا تلجأ إلى الخمر ولا إلى المخاتلة، وإنما تتردّد بين أمرين أحدهما تعريض ذريح نفسه لحرّ الشمس، والآخر هجر الوالدين ابنهما، وامتناعهما عن مخاطبته، وتجعل صمود الأبوين محكّاً لمقاومة قيس. ولذلك تذكر الروايات أن هذه المجابهة بين الطرفين قد دامت أربعين يوماً أو سنة أو عشر سنين. وإذا كان أبو الفرج يخطّىء الرواية الأولى فإن طه حسين يرجّحها[5].

ومهما يكن من أمر فإن زوجة العاشق في الروايتين تحذّره من مغبة الانصياع لمطالب أبيه، وتشدّ من عزمه، ولكنه ينهار في نهاية الصراع، فترجح عنده كفّة الوالدين على كفة الزوجة. وتصوَّر المحنة في رواية ابن العجلان في مشهد لا يخلو من مواجهة بين الزوجين. فحين دعا العجلان ابنه إليه «قالت له هند: لا تمض إليه، فوالله ما يريدك لخير، وإنما يريدك لأنه بلغه أنك سكران، فطمع فيك أن يقسم

(1) م. ن، ج 22، ص 237.

(2) م. ن، ج 9، ص ص 183 - 184. وقد أورد الأصبهاني بإسناد ينتهي بليث بن عمر أن أبو قيس هجراه في لبنى، وهذه الرواية قريبة جداً ممّا ورد في قصّة ابن العلاجن.

(3) اعتبر طه حسين هذا الوضع «أول مظهر من مظاهر الجهاد العنيف بين البر والحب»، حديث الأربعاء، ج 1، ص 214.

(4) الأصبهاني: الأغاني، ج 22، ص ص 237 - 238.

(5) طه حسين: حديث الأربعاء، ج 1، ص ص 214 - 215.

عليك، فتطلقني، فنمْ مكانك، ولا تمض إليه. فأبى، وعصاها، فتعلقت بثوبه، فضربها بمسواك، فأرسلته. وكان في يدها زعفران، فأثّر في ثوبه مكانُ يدها، ومضى إلى أبيه»[1]. أما قيس بن ذريح فإنّ محنة تَمزّقه قد تواصلت أياماً. فكان حين ينصرف عن أبيه «يدخل إلى لبنى، فيعانقها وتعانقه، ويبكي وتبكي معه، وتقول له: يا قيس، لا تطع أباك فتهلك وتهلكني. فيقول: ما كنت لأطيع أحداً فيك أبداً»[2]. فلا عصيان ولا ضرب هنا، ولكن اعتناق وبكاء ووعد بالوفاء.

وإذا كانت هذه الوظيفة قد مثّلت في الروايتين بدء القطيعة بين العاشقين فإنّها اتُّخذت في بعض الروايات الأخرى مطيّة لهذه القطيعة، وتجسّدت في رحيل العاشق. فقد دفع والد أسماء بالمرقش إلى السفر حتى يعرف بالبأس، فـ «انطلق مرقش إلى ملك من الملوك فكان عنده زماناً ومدحه فأجازه»[3]. وكذا فعلت أم الحويرث مع كثير حتى تركها وارتحل في طلب المال. وقد طوّرت رواية عروة بن حزام هذه الوظيفة، فصوَّر صاحبها ليلة الوداع، وحالة عروة أثناء السفر فقال: «وعلم أنه لا ينفعه قرابة ولا غيرها إلاّ بالمال الذي يطلبونه، فعمل على قصد ابن عم له موسر كان مقيماً باليمن. فجاء إلى عمه وامرأته فأخبرهما بعزمه، فصوّباه ووعداه ألاّ يحدثا حدثاً حتى يعود. وصار في ليلة رحيله إلى عفراء، فجلس عندها ليلة هو وجواري الحي يتحدّثون حتى أصبحوا. ثم ودّعها وودّع الحيّ وشدّ على راحلته. وصحبه في طريقه فَتَيان من بني هلال بن عامر كانا يألفانه، وكان حياهم متجاورين. وكان في طول سفره ساهياً، يكلمانه فلا يفهم، فكرةً في عفراء، حتى يُردّ القولُ عليه مراراً، حتى قدم على ابن عمه»[4]. والطريف أن هذه الروايات الثلاث تلتقي في أن السفر مفروض على العاشق فرضاً، وفي أنه لم يقدم عليه إلا بعد أن قطعت الحبيبة أو أهلها له عهداً بأنه حين ينقلب من سفاره يجدها في انتظاره.

وتنفرد رواية عبد الله بن علقمة بتقديم صيغة للمحنة تفيد من السياق التاريخي الذي واكب الحب، وهو سياق الدعوة الإسلامية. فقد جاء في هذه الرواية أن الرسول ﷺ أرسل خالداً بن الوليد (تـ 21 هـ) على رأس سرية إلى بني عامر بن عبد مناة بن كنانة ليدعوهم إلى الإسلام. فأبَوا أن يُلقوا سلاحهم وأن ينزلوا. فأعمل فيهم السيف. وكان ممن قُتل يومئذ عبد الله بن علقمة. وتثير هذه الصيغة ملاحظتين:

(1) الأصبهاني: الأغاني، ج 22، ص ص 214.

(2) م. ن، ج 9، ص 184.

(3) م. ن، ج 6، ص 129.

(4) م. ن، ج 24، ص 148.

أولاهما أن هذا الصراع بين مصطلح الحبّ ومصطلح الدين لا يبدو لنا متكافئاً. وكأننا بالراوي يستغل هذا الظرف لإدانة الدعوة الإسلامية الناشئة. والذي نذهب إليه أن هذه القراءة قد عزّزت بما نسب إلى الرسول من غضب على خالد إذ سأله لمّا عاد: «يا خالد، ما دعاك إلى هذا؟»[1]، وهو يعني أمره بقتل الأسرى. وقد بعث الرسول علياً بن أبي طالب إلى القوم وأمره أن يَدِيَهُم فَوَداهُم. ولعل ذلك ما حدا براو آخر إلى إيجاد قراءة أخرى إسلامية، إذ نسب إلى الرسول أنه قال لخالد حين حدّثه بخبر قتله عمروا وهو عبد الله بن علقمة: «لقد رُفِعتَ لي يا خالد وإن سبعين مَلَكا لمطيفون بك يحضُّونك على قتل عمرو حتى قتلته»[2]. وأما الملاحظة الثانية فتتمثل في انفراد هذه الرواية بأنها ضخمت المحنة التي تعرّض لها العاشق إلى حدّ أنها جعلتها تنتهي بالموت وهي الوظيفة الأخيرة من وظائف الرواية العذرية. أما الروايات الأخرى فإنها جعلت المحنة حلقة من حلقات المغامرة التي يمرّ بها العاشق.

9 ـ الطلاق:

تعدّ هذه الوظيفة التاسعة المقابل الطبيعي للوظيفة السابعة التي وسمناها بالزواج، فلا تنجز هذه الوظيفة إلا إذا أنجزت تلك. ولذلك فإننا لا نعثر على الطلاق إلا في روايتي عبد الله بن العجلان وقيس بن ذريح، إذ أن زواج العاشق بمن يحب لم يقع إلا فيهما. والجامع بين الروايتين في الحديث عن الطلاق أمران أولهما أنه جاء فيهما ناتجاً عن ضغوط خارجية ومساومة تؤدي بالعاشق إلى الانهيار بعد طول مقاومة. ولذلك ارتبط فعل «طلّقها» في الحالتين بحرف «حتى» الذي يفيد انتهاء الغاية. ففي رواية ابن العجلان أن أباه «أنّبه وضعّفه وجمع عليه مشيخة الحي، فتناولوه بألسنتهم، وعيّروه بشغفه بها وضعف حزمه. ولم يزالوا به حتى طلّقها»[3]. وفي رواية ابن ذريح أنه قال: «هجرني أبواي في لبنى عشر سنين، أستأذن عليهما فيردّاني حتى طلّقتها»[4]. وثاني الأمرين إيجاز الحديث عن الطلاق إلى أقصى حدود الإيجاز، وفي هذا مقابلة بين طول المعاناة وسرعة اتخاذ القرار، مما يوحي بأنّ الطلاق لم يكن تطوراً طبيعياً في مسار الأحداث، وإنما جاء طفرة غير متوقعة تمثل لحظة غفلة عجز فيها الزوج العاشق عن المقاومة. ولذلك كان ابن العجلان حين

(1) م. ن، ج 7، ص 288.
(2) م. ن، ج 7، ص 290.
(3) م. ن، ج 22، ص ص 237 ـ 238.
(4) م. ن، ج 9، ص 184.

طلّق هنداً في حالة سكر لا يمكن أن يُعَدّ فيها مسؤولاً عما يصدر عنه «فلمّا أصبح خُبّر بذلك»[1]. ويضاهي هذا في رواية قيس أنه لم يدرك ما حدث إدراكاً تاماً، إذ أنه واصل الدخول على لبنى أيام عدّتها، فلما رآها تستعدّ للرحيل أخذ يسأل من حوله عمّا حدث وعن سرّ هذا الاستعداد للسفر، وكأنه ليس طرفاً في الوقائع، بل كأنه ليس السبب المباشر في الأحداث. حتى إن امرأة من قومه انبرت تسأله: «مالك ويحك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل»[2]. ولئن استعان الراوي الأول بالخمر لإقصاء مسؤولية عبد الله بن العجلان في طلاق هند، فإنّ الراوي الثاني جعل قيساً يعيش في غيبوبة عن هذا الحدث. فسُلوكه الراهن يدلّ على أنه جاهل له ولكن سلوكه الماضي يدلّ على أنه يتجاهل. وفي هذا اللبس مظهر آخر من المظاهر التي تكشف عن أدبيّة هذه الرواية.

10 ـ التأزم:

لهذه الوظيفة العاشرة حيّز مخصوص في مسار الحبكة. فهي ترد قبل تزويج الحبيبة. ومن ثم فإنّها تختلف عن الأزمة التي يقع فيها العاشق بعد أن تزوّج حبيبته من غيره. ولهذا فإننا نجد هذه الوظيفة بارزة في روايتي عبد الله بن العجلان وقيس ابن ذريح، متصلة بخروج الزوجة، بعد طلاقها، من بيت زوجها إلى بيت أبيها. وقد عبّر راوي القصّة الأولى عن هذا التأزم بإيجاز. فحين طلّق عبد الله هندا «علمت به هند، فاحتجبت عنه، وعادت إلى أبيها، فأسف عليها أسفاً شديداً»[3].

أما راوي القصة الثانية فقد صوّر ندم قيس على ما فعل، وشدّة تأثير ذلك فيه. ثم مسرح حدث الفراق وزوّده بالتفاصيل والحركة والحوار، إمعاناً في تجسيد حيرة قيس وتمزقه. فقال: «لمّا بانت لبنى بطلاقه إياها وفُرغ من الكلام، لم يلبث حتى استطير عقله وذهب به ولحقه مثل الجنون. وتذكّر لبنى وحالها معه، فأسف وجعل يبكي وينشج أحرّ نشيج. وبلغها الخبر فأرسلت إلى أبيها ليحتملها. وقيل: بل أقامت حتى انقضت عدّتها وقيس يدخل عليها. فأقبل أبوها بهودج على ناقة وبإبل تحمل أثاثها. فلما رأى ذلك قيس أقبل على جاريتها فقال: ويحك! ما دهاني فيكم؟ فقالت لا تسألني وسل لبنى. فذهب ليلمّ بخبائها، فمنعه قومها. فأقبلت عليه امرأة من قومه

(1) م. ن، ج 22، ص 238.
(2) م. ن، ج 9، ص ص 184 ـ 185.
(3) م. ن، ج 22، ص 238.

فقالت له: مالك ويحك تسأل كأنك جاهل أو تتجاهل! هذه لبنى ترتحل الليلة أو غدا. فسقط مغشياً عليه لا يعقل»[1].

وفي هاتين الحالتين وقع انزياح للحدث من وظيفة إلى أخرى. فهذا التأزم في الروايتين قد ارتبط بالتفريق بين الحبيبين، وهو حدث يضاهي ما كنا شهدناه في بعض الروايات من حجب للحبيبة ومنع للعاشق من إتيانها، وجعلنا عليه مدار الوظيفة الرابعة التي وسمناها بالعقاب. ويضاهي أيضاً ما رأيناه في روايات أخرى من لجوء أهل الحبيبة إلى حجبها والفصل بينها وبين العاشق بعد خطبته إياها، وذلك ضمن الوظيفة السادسة الموسومة بالرد. على أن ما تمتاز به وظيفة التأزم ههنا هو ارتباطها بتغيّر حالة العاشق، وهو تغيّر تراوح بين الأسف الشديد والجنون. وقد تطوّرت هذه الوظيفة على نحو جليّ في رواية ابن ذريح إذ اتخذ منها الراوي مطية لإيراد أشعار قيس التي وصف فيها جزعه لفراق لبنى وشوقه إليها وعلمه بتعذر اللقاء بينه وبينها. وتندرج في هذه الوظيفة محاولته زيارتها في رفاق له أوهمهم برغبته في الخروج للصّيد، وعدمُ سلوّه عنها، وزواجُه من سميّتها، نزولاً عند رغبة أخيها. وهذا التضخيم ينبغي أن يُفهَم في ضوء مقابلته للإيجاز الذي وسمت به الوظيفة في رواية ابن العجلان، وفي ضوء مقابلته للاختصار الشديد الذي اشتركت فيه الروايتان لوظيفة الطلاق. أما الجانب الأول فسنعرض له ضمن الفصل الثالث من هذا الباب؛ وأما الجانب الثاني فإنه ربما نمّ عن رغبة الراوي في إخراج الطلاق من مجال وعي العاشق، والإيحاء بأنه حدث تمّ في لحظة غيبوبة حتى إذا انجلت عن عينيه الغشاوة لم يعد باستطاعته أن يتدارك الأمر، فركن إلى الندم والشكوى.

11 ـ التزويج :

تلتقي في هذه الوظيفة جميع الروايات باستثناء رواية عبد الله بن علقمة التي مات فيها العاشقان خلال إحدى المغازي الإسلامية في بدء الدعوة. إلا أن تحقق هذه الوظيفة ليس واحداً في الروايات جميعاً. فمنها ما يرد فيه ذكر التزويج على نحو عارض، شأن رواية كثير التي سيق فيها أمر التزويج خلال حديث كثير لما سأله عبد الملك بن مروان «عن أعجب خبر له مع عزة فقال: حججت سنة من السنين وحجّ زوج عزة بها»[2]. وقد أخرج الحدث هنا من سياقه الزمني، وجاء في شكل إيماء إلى

(1) م. ن، ج 9، ص ص 184 ـ 185.
(2) م. ن، ج 9، ص 29.

الماضي. ومنها ما ينزّل الحدث في مساقه إلا أنه يورده في صيغة موجزة. ففي رواية وضاح اليمن مع روضة أنه «خطبها فلم يزوّجها وزُوّجَتْ غيره»[1]. وفي رواية جميل أن بثينة «تزوّجت»[2]. وقد يُقتصَر في تحقيق هذه الوظيفة على ذكر انتماء الزوج القبلي، وهو ما حصل مع ليلى صاحبة توبة وقد «زوّجها أبوها في بني الأدلع»[3]، أو مع ليلى صاحبة المجنون التي «زوّجها [أبوها] رجلاً من قومها، وأدخلها عليه، فما أمسى إلا وقد بنى بها»[4]. أو مع عبد الله بن العجلان الذي طلّق زوجته هنداً، «فلمّا رجعت إلى أبيها خطبها رجل من بني نمير، فزوّجها أبوها منه، فبنى بها عندهم»[5]. وقد يُذكر موطن الزوج، على غرار ما نجده في رواية ابن ميادة صاحب أم جحدر التي «حلف أبوها ليزوجنّها إلى رجل من غير عشيرته ولا يزوّجها بنجد. فقدم عليه رجل من الشام فزوّجه إياها»[6]. وقد ينصّ الخبر على اسم الزوج ونسبه، وهو ما نعثر عليه في رواية الصمّة القشيري. فبعد أن خطب ريّا إلى أبيها ورُفض طلبه «خطبها عامر بن بشر بن أبي براء بن مالك بن ملاعب الأسنّة بن جعفر بن كلاب فزوّجه إياها»[7].

فإذا كان الاتجاه الغالب على هذه الروايات الاختصار في تقديم هذه الوظيفة فإنّ عدداً من الروايات الأخرى ينزّل هذا الحدث في إطار مخصوص، فيفصّل القول فيه ويحاول أن يبرّره أو أن يمسرحه. ويتعلق الأمر خاصّة بروايتي المرقّش الأكبر وعروة بن حزام، وقد جمع بينهما أن تزويج الحبيبة فيهما تمّ حين كان العاشق في سفر. فرواية المرقّش تربط استجابة عوف لخطبة ابنته أسماء بما حلّ به من فاقة، فقد «أصاب عوفاً زمان شديد، فأتاه رجل من مراد أحد بني غطيف، فأرغبه في المال، فزوّجه أسماء على مائة من الإبل»[8]. وأما رواية عروة بن حزام فإنها تستغل تردّد والد عفراء بين الوفاء بالوعد الذي قطعه لابن أخيه عروة، والنزول عند رغبة زوجته، فتصوّره في وضع من الحيرة والتمزّق يكاد يعجز فيه عن الحسم. «وقد كان رجل من أهل الشام من أسباب بني أميّة نزل في حيّ عفراء فنحر ووهب وأطعم، وكان ذا مال عظيم، فرأى عفراء، وكان منزله قريباً من منزلهم، فأعجبته وخطبها إلى أبيها،

(1) م. ن، ج 6، ص 212.
(2) م. ن، ج 8، ص 108.
(3) م. ن، ج 11، ص 204.
(4) م. ن، ج 2، ص 21.
(5) م. ن، ج 22، ص 238.
(6) م. ن، ج 2، ص 270.
(7) م. ن، ج 6، ص 2.
(8) م. ن، ج 6، ص 129.

فاعتذر إليه وقال: قد سمّيتها إلى ابن أخ لي يَعدِلُها عندي، وما إليها لغيره سبيل. فقال له: إني أُرْغِبُك في المهر. قال: لا حاجة لي بذلك. فعدل إلى أمّها، فوافق عندها قبولاً لبذله ورغبة في ماله، فأجابته ووعدته، وجاءت إلى [زوجها] عقال فآدته وصخبت معه، وقالت: أي خير في عروة حتى تحبس ابنتي عليه، وقد جاءها الغنيّ يطرق عليها بابها؟ والله ما ندري أعروة حيّ أم ميتٌ؟ وهل ينقلب إليك بخير أم لا؟ فتكون قد حرمت ابنتك خيراً حاضراً ورزقاً سنيّاً. فلم تزل به حتى قال لها: فإن عاد لي خاطباً أجبتُه. فوجّهت إليه أن عد إليه خاطباً. فلما كان من غد نحر جزراً عدة، وأطعم ووهب وجمع الحيّ معه على طعامه، وفيهم أبو عفراء. فلما طعموا أعاد القول في الخطبة، فأجابه وزوّجه، وساق إليه المهر، وحوّلت إليه عفراء [. . .] فلما كان الليل دخل بها زوجها»[1]. وجليّ أن الروايتين تتفقان في تبرير التزويج، إلا أن إحداهما تجعل الفقر سبباً في إخلال الأب بوعده، في حين تحمّل الأخرى الأم تبعة ما جرى، وتَصمها بجرّ الأب إلى نقض عهده واتّباع متاع الدنيا. وعلى الرغم من أن المال في الحالتين كلتيهما أداة الإغراء وعلة التراجع فإنّ الرواية الأولى كانت أقل تفصيلاً من الثانية في مستوى الخبر وأكثر اقتصاداً في مستوى الخطاب.

وإذا كنا في هذه الروايات جميعاً لا نكاد نعثر على موقف الحبيبة من الأمر ـ وإن وُجِد ذلك كما هو الشأن في رواية عروة وعفراء كان منحصراً في التألم والشكوى ـ فإن رواية المجنون قد وظفت المقابلة بين الظاهر والباطن لإبراز رضى ليلى في الظاهر ورفضها في الحقيقة. فقد شاء الراوي أن يجمع بين قيس ومزاحمه ورد فيجعلهما يتقدمان لخطبتها في وقت واحد. إلا أن أهلها يهدّدونها إن هي لم تختر ورداً بأنهم سيمثلون بها. إن الدافع المادي الذي اضطلع بدور حاسم في الروايات الأخرى قد تراجع ههنا، إذ أن قيساً بذل لليلى خمسين ناقة حمراء ولم يبذل لها ورد إلا عشراً من الإبل وراعيها. ومع ذلك فإنّ الحرص على الشرف قد دعا أهل ليلى إلى تفضيل ورد على قيس، لأن قيساً شبب بليلى واشتهر شعره فيها. ولهذا يكون التزويج حلقة من حلقات الردّ على المخالفة الأصلية التي اقترفها الشاعر العاشق. أما إذا لم تقع تلك المخالفة ـ كما هو الحال مع المرقّش الأكبر وعروة بن حزام ـ فإن القيم المادية هي التي تكون لها الغلبة على حساب القيم الأخلاقية.

(1) م. ن، ج 24، ص ص 148 ـ 149 ـ 150.

وتنفرد رواية قيس بن ذريح بتقديم صورة عن المحبوبة تخرج فيها عن التغييب أو التهديد. وذلك أن زواج قيس من غيرها بلغها «فغمّها وقالت: إنّه لغدّار! ولقد كنت أمتنع من إجابة قومي إلى التزويج، فأنا الآن أجيبهم»[1]. وبإزاء هذا الموقف، زاد الراوي أهل لبنى سلبية، إذ جعل مروان بن الحكم هو الذي أمرهم بتزويج لبنى رجلاً بعينه، لمّا شكا أبوها قيساً إلى معاوية. والطريف في هذه الرواية أنها تجمعُ في هذه الوظيفة المتداولة في قصص الحب بين مصطلحين: المصطلح الاجتماعي وفيه وقع تركيب مبدأ الثأر القبلي على جدول الذكورة والأنوثة، فإذا بالأنثى المقهورة تثأر لنفسها من ظالمها، والمصطلح السياسي الذي يقف في أكثر القصص عند حدود إهدار الدم، إلا أننا رأيناه ههنا في الوظيفة الخامسة وهي «الطلب» ممثلاً في شخص الحسين شفيعاً خاطباً، ووجدناه في الوظيفة الحادية عشرة وهي «التزويج» ممثلاً في معاوية بن أبي سفيان ومروان بن الحكم. فإذا كان الحسين يسعى إلى الجمع بين الحبيبين، فإن الأمويّين معاوية ومروان يعملان على التفريق بينهما.

إن أهميّة هذه الوظيفة في الروايات العذرية لا تكمن في كثافة حضورها فحسب، وإنما تكمن أيضاً في المنزلة التي تحظى بها في مسار الحبكة. فهي تمثل قمّة الأزمة وتفتح المجال لبداية الانفراج، إذ هي حدّ لأمل العاشقين في أن يجتمعا في ستار الشرعية. وقد لاحظنا أن ذكر الرّجل الذي يتزوج المحبوبة في هذه الروايات لا يخلو من دلالة. فالراوي يتعمّد أحياناً إغفال اسمه ونسبه، وكأنّ في ذلك تحقيراً له. وفي روايات المرقّش الأكبر وابن ميادة وعروة بن حزام يُكتفَى بذكر موطنه فينصّ على أنه من الشام. ولا شك أن هذه النسبة تساعدنا على تأريخ الفترة التي ظهرت فيها هذه الروايات أو بدأت في التشكل وهي الفترة الأموية. على أن عدداً آخر من الروايات يذكر صراحة أن الزوج لا ينتمي إلى قبيلة المحبوبة. ولعلّ هذه الإشارات تنهض على الجذور القبلية الممتدة في الفكر العربي آنئذ. ومن ثم يمكن اعتبارها إدانة مقنّعة لهذا الزواج وخصوصاً حين يحلّ الزوج الغريب محل الحبيب القريب، وتمهيداً لما سينتهي إليه العاشقان.

12 ـ التدهور:

تُعَدّ هذه الوظيفة من أكثر الوظائف تواتراً في الرواية العذرية. ومن بين

(1) م. ن، ج 9، ص 197.

النصوص الاثني عشر التي اعتمدناها في مدوّنتنا لم نفتقدها إلا في روايتين، أولاهما رواية عبد الله بن علقمة، وهي كما ذكرنا خالية من التزويج، وثانيتهما رواية توبة بن الحمير وهي تضم وظيفة التزويج، ولكنها تمثل استثناء للقاعدة، لعله متأت من طبيعة الوظيفة اللاحقة بها، وهي لا تتلاءم وما قامت عليه سائر الروايات من تصوير للعاشق في صورة الحزين المضنى.

وبين الروايات الأخرى اتفاق في ربط التدهور الذي يصيب العاشق بتزويج المحبوبة، ولكن بينها اختلافاً في تصوير الدرجة التي يبلغها وفي الإلحاح على وصف ما يعانيه. فقد يأتي الحديث عامّاً يكتفي فيه الراوي بإبراز الحالة التي آل إليها العاشق. فحين زوّجت أم جحدر الرجل الشامي «لقي عليها ابن ميادة شدّة»[1]. وذكر جميل لأبيه الذي لامه في بثينة أنه عاجز عن نسيانها وقال: «إنما هو بلاء بُليتُ به لحَيْن قد أتيح لي»[2]. وعندما زوجت ليلى «جزع قيس جزعاً شديداً وجعل ينشج أحرّ نشيج ويبكي أحرّ بكاء»[3]. وكذلك كان أمر الصمّة القشيري مع ريّا، إذ «لمّا بنى بها زوجها، وجد الصمّة بها وجداً شديداً وحزن عليها»[4]. وعلى الرغم من أن المرقش الأكبر وعروة بن حزام لم يعلما بتزويج حبيبتيهما في غيابهما فإن النعي الزائف للحبيبتين قد ولّد عند العاشقين حالة شبيهة بما ذكرنا. فالمرقّش «ضني ضنى شديداً»[5]، وظل عروة «أياماً وهو مضنى هالك»[6].

وقد يذكر الراوي أن العاشق مرض، شأن ابن العجلان الذي أسف على تزوّج النميري حبيبته هندا «فلم يزل عبد الله بن العجلان دنفا سقيماً يقول فيها الشعر ويبكيها»[7]، وشأن كثير الذي حدّد مرضه بالهُلاس وهو داء يهزل الجسم أو هو السلّ. وقد ذكر أحد رواة قصته مع أم الحويرث أنه لما وجدها قد تزوجت في غيابه «أخذه الهلاس، فكشح جنباه بالنار. فلما اندمل من علته وضع يده على ظهره، فإذا هو برقمتين؛ فقال: ما هذا؟ قالوا: «إنه أخذك الهلاس، وزعم الأطباء أنه لا علاج لك إلا الكشح بالنار فكشحتَ بالنار»[8]. وكذلك كان مصير المرقّش حين عزم على

(1) م. ن، ج 2، ص 270.
(2) م. ن، ج 8، ص 130.
(3) م. ن، ج 9، ص 198.
(4) م. ن، ج 6، ص 2.
(5) م. ن، ج 6، ص 129.
(6) م. ن، ج 24، ص 150.
(7) م. ن، ج 22، ص 238.
(8) م. ن، ج 9، ص 35.

رؤية أسماء «فمرض في الطريق حتى ما يُحمَل إلا معروضاً»[1]. وإذا كان المرقّش مرض قبل رؤية أسماء، فإنّ قيسًا بن ذريح مرض حين كان عائداً من الحجّ حيث رأى لبنى، «فمرض قيس في طريقه مرضاً شديداً أشفى منه على الموت»[2].

على أن نصف روايات المدوّنة يذكر أن العاشق جنّ. وإذا كان قيس بن الملوّح أكثر العشاق تمثيلاً لهذا المآل حتى غلب لقب المجنون عليه، فإنّ من الشعراء العشاق الآخرين من وقع التلميح إلى أنّه أصيب بالبهتة والسّهوم شأن ابن ميادة الذي شهد تزويج أم جحدر من الشامي وخروج زوجها «فتبعها [. . .] حتى أدركه أهل بيته فردّوه مصمتاً لا يتكلم من الوجد بها»[3]. ومن علامات الاختبال ما روي عن الصمّة من أنه كان يحدّث نفسه. فقد قال أحد الرواة: «مررت بالصمّة بن عبد الله القشيري يوماً وهو جالس وحده يبكي ويخاطب نفسه ويقول: لا والله ما صدّقتكَ فيما قالت؛ فقلت: من تعني؟ ويحك، أجننت! قال: أعني التي أقول فيها: [من الطويل]

«أَمَا وَجَلالِ اللّهِ لَوْ تَذْكُرِينَنِي ... كَذِكْرِيكِ مَا كَفْكَفْتِ لِلْعَيْنِ مَدْمَعَا
فَقَالَتْ بَلَى وَاللّهِ ذِكْراً لَوَانَّهُ ... يُصَبُّ عَلَى صُمِّ الصَّفَا لَتَصَدَّعَا»[4]

وقد وردت هذه الصورة بأكثر تفصيلاً في رواية قيس بن ذريح إذ حدّث أحد الرواة قال: «أقبلت ذات يوم من الغابة؛ فلما كنت بالمذاد، إذا رَبْع حديث العهد بالساكن، وإذا رجل مجتمع في جانب ذلك الربع يبكي ويحدّث نفسه. فسلّمت فلم يردّ علي سلاماً. فقلت في نفسي: رجل ملتبَس به فوليت عنه. فصاح بي بعد ساعة: وعليك السلام. هلمّ هلمّ إلي يا صاحب السلام؟ فأتيته فقال: أما والله لقد فهمت سلامك. ولكني رجل مشترك اللب يضل عني أحياناً ثم يعود إلي»[5].

إن هذه السمة أساسية في بعض روايات العشاق، وهي تنتقل بين حبلين على طرفي نقيض تراوح بينهما مراوحة مدهشة. فالعاشق لا يفقد عقله ضربة واحدة ولا يجنّ جنوناً مسترسلاً. بل تأتيه نوبات يخرج فيها عن صف أهل النهى، ثم لا تلبث أن تزول فيؤوب إليه رشده. وقد ذكر أحد الرواة ذلك فقال: «كنت يوماً جالساً مع جميل وهو يحدّثني وأحدّثه، إذ ثار وتربّد وجهه، فأنكرته ورأيت منه غير ما كنت

(1) م. ن، ج 6، ص 130.
(2) م. ن، ج 9، ص 202.
(3) م. ن، ج 2، ص 272.
(4) م. ن، ج 6، ص 6.
(5) م. ن، ج 9، ص 212.

13 ـ التحدي:

وتتميّز هذه الوظيفة بحضورها في جميع الروايات التي تتكون منها مدوّنتنا، دون استثناء. وقد كادت تجمع هذه الروايات على اختيار الزيارة شكلاً أساسياً من أشكال التحدي. وهي زيارة يؤديها العاشق إلى ديار الحبيبة بعد تزويجها. ولذلك وجدنا الرحلة ملازمة لهذه الوظيفة. فعروة بن حزام وابن ميادة يرحلان إلى الشام، ويرحل الصمّة القشيري إلى طِبرستان ووضاح إلى الشام وإن كانت رحلة الأخيرين لغير المحبوبة. أما قيس بن ذريح وجميل وكثير والمجنون فقد ارتحلوا إلى الحج والتقوا فيه بحبيباتهم. وارتحل توبة إلى بني الأدلع حيث زوّجت ليلى، وسافر المرقّش الأكبر من اليمن إلى نجران حيث يقيم بنو مراد. وطلب عبد الله بن العجلان هنداً في ديار بني عامر التي انتقلت إليها صحبة زوجها.

وفي بعض الروايات يتوسل العاشق إلى حبيبته بزوجها. فعروة مثلاً يسأل عن زوج حبيبته ويأتيه فيحتال عليه وينتسب له في غير أهله. ثم يرسل خاتمه إلى عفراء فتعرفه وتعرّف به زوجها، فيدعوه ويلومه على كتمانه نفسه ويقول له: بالرحب والسعة نشَدتك الله إن رِمْتَ هذا المكان أبدا. وخرج وتركه مع عفراء يتحدثان [. . . ثم] دعاه وقال له: يا أخي اتق الله في نفسك فقد عرفتُ خبرك وإنك إن رحلت تلفت ووالله لا أمنعك من الاجتماع معها أبداً. ولئن شئت لأفارقنّها ولأنزلنّ عنها لك»[1]. إن هذا اللقاء الخالي من الصدام إلى حدود المثالية إنّما برّره عزوف عروة عن إتيان الحرام مع عفراء، مما يؤكد الصبغة العذرية للحب. ويذكرنا هذا بسلوك زوج أسماء مع المرقّش إذ أنه اصطحب زوجته إليه في الكهف الذي كان فيه، فاحتملاه[2]. ولكن الأمور لا تسير دائماً على هذا النحو. فعلى الرغم من أننا نعثر على ما يشبه هذا في رواية جميل حين زار بثينة فتجسس عليهما أبوها وأخوها فلم يريا منهما ريبة، فإنّ في هذه الرواية وجهاً آخر يتمثل في المواجهة. فقد كان جميل، بعد زواج بثينة «يزورها في بيت زوجها [. . .] خفية إلى أن استعمل دجاجة بن ربعي على وادي القرى، فشكوه إليه فتقدّم إليه ألا يلمّ بأبياتها وأهدر دمه لهم إن عاود زيارتها، فاحتبس حينئذٍ[3]». وقد طوّرت رواية جميل هذه الوظيفة حتى بلغت بها مدى بعيداً، إذ جعلت جميلاً يقضي في خباء بثينة ثلاثة أيام[4] ويزورها يوماً في

(1) م. ن، ج 24، ص ص 152 ـ 153.
(2) م. ن، ج 6، ص 132.
(3) م. ن، ج 8، ص 108.
(4) م. ن، ج 8، ص 114.

غياب أهلها، فلما عاد الرجال نشبت بينه وبينهم معركة «وغشيه الرجال فجعلوا يرمونه ويطردونه فإذا قربوا منه قاتلهم ورمى فيهم»[1].

وقد يكون اللقاء بين العاشق والزوج عفوياً. فابن ميادة يروي أنه ارتحل إلى الشام للقاء أم جحدر ويقول: «فدرت الشام زماناً فتلقاني زوجها فقال: مالك لا تغسل ثيابك هذه! أرسل بها إلى الدار تغسل. فأرسلت بها. ثم إني وقفت انتظر خروج الجارية بالثياب، فقالت أم جحدر لجاريتها: إذا جاء فأعلميني! فلما جئت إذا أم جحدر وراء الباب فقالت: ويحك يا رمّاح! قد أحسب أن لك عقلاً! أما ترى أمراً قد حيل دونه وطابت أنفسنا عنه؟ انصرف إلى عشيرتك فإنّي أستحي لك من هذا المقام؛ فانصرفت»[2]. وعلى الرغم من أن قيساً بن ذريح قد قصد المدينة لرؤية لبنى فإنّ لقاءه بزوجها جاء عفوياً. فقد «أخذ إبله وقدم بها المدينة. فبينما هو يعرضها إذ ساومه زوج لبنى بناقة منها وهما لا يتعارفان. فباعه إياها. فقال له: إذا كان غد فأتني في دار كثير بن الصلت فاقبض الثمن. قال: نعم»[3]. وكان اللقاء ناتجاً عن ذلك الحادث. نعم، إن التحدي لا يتوفّر في هذا الضرب من اللقاءات، إلا أنه متوفر لا محالة في خروج العاشق إلى البلد الذي تقيم به حبيبته لرؤيتها وهو يعلم أن لها بعلاً.

وقد ينسج الرواة عدداً من التنويعات على هذه الوظيفة. فبعضهم يجعل العاشق يتنكر، وهذا ما نسب إلى جميل، وبعضهم يجعل الخاتم علامة التعرف، وهو ما حصل في روايات المرقّش وكثير وعروة بن حزام. وبعضهم يجعل الحبيبة هي التي تتحدّى وتسأل العاشق أن يزورها، وهو ما روي عن ليلى حين خرج زوجها وأبوها «في أمر طرق الحيّ إلى مكة. فأرسلت ليلى بأمة لها إلى المجنون فدعته فأقام عندها ليلة، فأخرجته في السَّحَر، وقالت له: «سر إليّ في كل ليلة ما دام القوم سفراً، فكان يختلف إليها حتى قدموا»[4].

على أن بعض الروايات ينصرف عن هذا التصوير لوظيفة التحدي. ولنا في قصص عبد الله بن العجلان وعبد الله بن علقمة والصمّة القشيري ووضاح اليمن شواهد على ذلك طريفة. ففي قصّة عبد الله بن العجلان يتخذ التحدي صورة حروب قبلية بين بني نهد ومنهم العاشقان وبني عامر الذين منهم الزوج الجديد.

(1) م. ن، ج 8، ص 147.
(2) م. ن، ج 2، ص 275.
(3) م. ن، ج 9، ص 204.
(4) م. ن، ج 2، ص 92.

وهنا تصبح القصّة إلى أيام العرب أقرب منها إلى رواية الحب. وتتولى هند إبلاغ قومها بأن بني عامر يعدّون العدّة للإغارة عليهم. فيستعدّون لهم ويهزمونهم. وعلى الرغم من هذا التوتّر فإن عبد الله «خرج سراً من أبيه مخاطراً بنفسه حتى أتى أرض بني عامر لا يرهب ما بينهم من الشرّ والتراث، حتى نزل ببني نمير وقصد خباء هند. فلما قارب دارها رآها وهي جالسة على الحوض، وزوجها يسقي ويذود الإبل عن مائه، فلما نظر إليها ونظرت إليه رمى بنفسه عن بعيره، وأقبل يشتدّ إليها، وأقبلت تشتدّ إليه، فاعتنق كل منهما صاحبه»[1]. وفي قصة عبد الله بن علقمة أن سرية خالد بن الوليد قد هاجمت قومه وهو فيهم حين رفضوا أن يضعوا السلاح. فأخذ أسيراً وقدّم ليقتل «فقال لنا: هل لكم في خير؟ قلنا: وما هو؟ قال تدركون بي الظعن أسفل الوادي ثم تقتلونني؛ قلنا نفعل. فخرجنا حتى عارض الظعن أسفل الوادي. فلما كان بحيث يسمعن الصوت، نادى بأعلى صوته: اسلمي حبيش، عند نفاد العيش. فأقبلت إليه جارية بيضاء حسناء، فقالت: وأنت فاسلم على كثرة الأعداء وشدة البلاء»[2]. فالعاشق يتحدى ههنا الرهبة والخوف من الموت، ويتحدّى سرية المسلمين بأن يطلب منهم تأجيل قتله لا العفو عنه، ويرفض النزول عند مطالبهم. وفي قصّة الصمّة القشيري أنه ترك المرأة التي زوّجه إيّاها قومه وارتحل إلى الشام. وقيل إنه «خرج في غزيّ من المسلمين إلى بلد الديلم»[3]. أما قصة وضاح فإنها أكثر القصص طرافة في إخراج هذه الوظيفة. فقد ذكر فيها أنه لمّا جذمت روضة انتقل وضاح إلى الحجاز فرأى أمّ البنين زوج الوليد ابن عبد الملك (تـ 96 هـ) فشبّب بها، والوليد يومئذٍ خليفة. وقد نسجت حول هذه العلاقة أخبار كثيرة ينسب أحدها إلى ابن الكلبي وفيه يقول: «عشقت أم البنين وضاحاً، فكانت ترسل إليه فيدخل إليها ويقيم عندها»[4].

والناظر في طرائق تحقق هذه الوظيفة في مختلف الروايات يلاحظ أن التحدّي قد تجسم فيها في مستويات ثلاثة أولها المستوى الاجتماعي ويتمثل في تحدّي مؤسسة الزواج سواء بإقامة علاقة مع المحبوبة أو بمغالطة الزوج أو بإهمال الزوجة التي يراد أن تكون بديلاً عن الحبيبة. وثانيها المستوى الديني وهو يتجلّى في تحويل الأماكن المقدسة مطية لتحقيق اللقاء مع الحبيبة. ولعلّ هذا ما يفسّر كثرة الروايات

(1) م. ن، ج 22، ص 241.
(2) م. ن، ج 7، ص ص 283 ـ 284.
(3) م. ن، ج 6، ص 3.
(4) م. ن، ج 6، ص 225.

التي تجعل الحج فرصة لمثل هذه اللقاءات[1]. وثالثها المستوى السياسي وقد ظهر في إهدار دم العاشق، إلا أن رواية وضاح كانت خير شاهد على أن تحدّي السلطة السياسية هو الكامن وراء تشبيب وضاح بأم البنين. ولذلك حظيت هذه الوظيفة بنصيب وافر من مشاغل الرواة.

14 ـ الوداع:

توجد هذه الوظيفة في أربع من الروايات التي تتكوّن منها مدوّنتنا، وهي بمثابة التمهيد للافتراق النهائي بين الحبيبين. وقد اتخذت صبغة مسرحية في رواية عبد الله ابن علقمة، إذ تمّ الوداع بحضور جيش المسلمين الذين كانوا يستعدّون للإجهاز على العاشق. وقد جاء الحوار بين الحبيبين سجعاً في بداية الأمر ثم أصبح شعراً، ختمه ابن علقمة بقوله: [من الطويل]

«فَلاَ ذَنْبَ لِي إِذْ قُلْتُ إِذْ نَحْنُ جِيرَةٌ ... أَثِيبِي بِوُدٍّ قَبْلَ إِحْدَى الْبَوَائِقِ
أَثِيبِي بِوُدٍّ قَبْلَ أَنْ تَشْحَطَ النَّوَى ... وَيَنْأَى خَلِيطٌ بِالْحَبِيبِ الْمُفَارِقِ»[2]

أما روايتا عروة بن حزام وقيس بن ذريح فتتفقان في جعل إطار الوداع ذلك اللقاء الأخير الذي يجمع بين العاشق وحبيبته في بيت زوجها. وعلى الرغم من ترحيب الزوج بعُروة فإنّه قرّر الانصراف طائعاً وقال له: «إنما كان الطمع فيها آفتي، والآن قد يئست، وقد حملت نفسي على اليأس والصبر. فإنّ اليأس يسلي، ولي أمور، ولا بدّ من رجوعي إليها [...] فزوّدوه وأكرموه وشيّعوه، فانصرف»[3]. وفي رواية قيس بن ذريح أنه لمّا تكلّم عرفت لبنى صوته، فسألت خادمتها أن تطلب منه أن يحدثهم حديثه «فلما ابتدأ يحدّث به كشفت الحجاب وقالت: حسبك، قد عرفنا حديثك! وأسبلت الحجاب. فبهت ساعة لا يتكلم، ثم انفجر باكياً ونهض فخرج. فناداه زوجها: ويحك! ما قصتك؟ ارجع اقبض ثمن ناقتك، وإن شئت زدناك. فلم يكلمه وخرج فاغترز في رحله ومضى»[4]. وبين هاتين الروايتين سبب خفي يتمثل في

(1) يمكن أن يقارن هذا بكثرة الحديث عن الحج في أخبار عمر بن أبي ربيعة. ولعل الأمر صورة مما يسميه بلاشير بـ «عدوى الموضوعات» بين الروايات العذرية والروايات الحضرية. انظر مقاله: «قضية تحويل الشاعر القبلي بطلا لرواية عذرية» (بالفرنسية)، ص 133.
(2) م. ن، ج 7، ص ص 283 ـ 284.
(3) م. ن، ج 24، ص ص 153 ـ 154.
(4) م. ن، ج 9، ص 205.

سكوت الراوي عن التصريح بالعلة التي حدت بالعاشق إلى الرحيل، وقد كان سافر لرؤية المحبوبة، فما باله حين يراها ييأس منها أو ينفجر باكياً ويرحل عنها؟ والرأي عندنا أن العاشق في الحالتين يواجه وضعاً مستحيلاً: فلا هو يقبل بالعيش في ظل زوج حبيبته، ولا هو يستطيع أن يحوّل علاقته بها زواجاً، ولا هو يقدر على معاشرتها ولها بعل. وكأن الحبّ عنده طموح دائم إلى الحبيبة، فإذا خرج من التجريد إلى التجسيد بَطُلَ.

وتمثل رواية جميل تطويراً لهذه الوظيفة إذ نسج فيها الراوي قصّة جعل مدارها على توديع جميل بثينة، وساقها على لسان أعرابية عجوز كانت شهدت الحادثة، فذكرت أنّها كانت مع بثينة وقد سافر الرجال وخرج الفتيان، وإذا بشخص ينحدر من الهضبة «فسلّم ونحن مستوحشون وجلون. فتأملته ورددت السّلام فإذا جميل. فقلت: أجميل؟ قال: أي والله؛ وإذا به لا يتماسك جوعاً. فقمت إلى قعب لنا فيه أقط مطحون وإلى عكة فيها سمن وربّ، فعصرتها على الأقطِ ثم أدنيتها منه وقلت: أصب من هذا. فأصاب منه. وقمت إلى سقاء نيه لبن فصببت عليه ماء بارداً فشرب منه وتراجعت نفسه. فقلت له: لقد بلغتَ ولقيتَ شرّاً، فما أمرك؟ قال: أنا والله في هذه الهضبة التي تَرَيْن منذ ثلاث ما أريمها أنتظر أن أرى فرجة، فلما رأيت منحدر فتيانكم أتيتكم لأودّعكم وأنا عامد إلى مصر. فتحدثنا ساعة ثم ودّعنا وشخص»[1]. والملاحظ أن هذا الخبر قد اهتم بظروف التوديع وأهمل الحدث نفسه. فلم يَصف من حالة جميل ولا بثينة النفسية شيئاً. ولم يورد ما دار بينهما من حديث. وهو في هذا يلتقي مع خبر آخر روي عن جميل، وذكر أنه ذهب لزيارة بثينة فـ «سار ستّ ليال وستة أيام وما التفت إلى طعام»[2]، ولكنه لا يذكر شيئاً عما وقع بينهما أو قالاه خلال اللقاء.

وبهذا يتضح لنا من خلال الروايات الأربع أن التوديع لم يوصف فيها وصفاً مفصّلاً، وإنما اقتُصِر على الإشارة إلى وقوعه. ولعلّ السّبب في ذلك يكمن في أن التوديع إعلان عن انقطاع الأمل في اللقاء بين الحبيبين، كما أن وقوع التوديع في نهاية الرواية العذرية يبرّر قلة اعتناء الرواة به. فالأحداث تتخذ ههنا وتيرة متسارعة تتلاءم وما تقتضيه البنية من انكسار واتجاه إلى الاستقرار الختامي.

(1) م. ن، ج 8، ص ص 152 ـ 153.
(2) م. ن، ج 8، ص 108.

15 ـ الموت:

تتميّز هذه الوظيفة الأخيرة بوجودها في روايات مدوّنتنا جميعها. ولئن كان الموت في ثلثي المدوّنة وثيق الصلة بالحب فإنه كان في ثلثها الأخير أي في أربع روايات منفصلاً عن القصة الغرامية. وإنما أُتِيَ به لأنّ الأخبار في «الأغاني» ذات طابع سيري، ومن ثم فإنّ الترجمة تنتهي عادة بوفاة المترجَم له. وفي هذه الحالة يختلف ذكر الموت أهميّة من رواية إلى أخرى. فقد جاء خطفاً في رواية ابن ميادة الذي قيل إنه مات «في صدر من خلافة المنصور [تـ 158 هـ]»[1]؛ وفي رواية كثير التي اقتصر فيها على الإشارة إلى إيمانه بالرجعة وجزع نساء المدينة عليه وذكرهن عزة في ندبتهنّ له[2]. وأما توبة فقد جاء موته خلال حروب قبلية وثارات نقلت رواية الحبّ إلى مجال القصص البطولي وأيام العرب منه خاصة[3]. وفي منطقة وسطى بين المجموعتين يأتي موت وضاح اليمن، وهو غير ذي صلة بحبّه لروضة، إلاّ أنه متصل مع ذلك بحبّه لأم البنين. وقد تواترت الروايات بأن الوليد بن عبد الملك قتله. إلا أنها اختلفت في طريقة قتله إياه، فمنها ما يقول إنه لمّا أكثر من التشبيب بأم البنين بعث إليه الوليد «من اختلسه ليلاً فجاءه به فقتله ودفنه في داره، فلم يوقف له على خبر»[4]. ومنها ما ينسج قصّة تشارف حدود الخيال وتجعل وضاحاً يدخل على عشيقته أم البنين فتخفيه في صندوق. ولكن خادماً يكتشف الأمر، فيبلغ الوليد، فيأمر بحمل الصندوق ويحفر له حفرة في مجلسه ويلقيه فيها قائلاً: «يا هذا، إنه بلغنا شيء إن كان حقاً فقد كفّناك ودفناك ودفنّا ذكرك وقطعنا أثرك إلى آخر الدهر، وإن كان باطلاً فإنّا دفنّا الخشب، وما أهون ذلك»[5]. ويبدي أبو الفرج شكه في صحّة هذه الرواية فينقل ما ذكره خالد بن كلثوم والزبير بن بكار من أنه «وقع بين رجل من زنادقة الشعوبية وبين رجل من ولد الوليد فخار خرجا فيه إلى أن أغلظا المسابّة، وذلك في دولة بني العباس؛ فوضع الشعوبي عليهم كتاباً زعم فيه أن أم البنين عشقت وضاحاً، فكانت تدخله صندوقاً عندها»[6].

أما روايات الحب الأخرى المعتمدة في مدوّنتنا فتنص صراحة على أن موت العاشق كان ناتجاً عن شدّة معاناته وما آل إليه حاله من تدهور. ولذلك فإنّ عدداً منها

(1) م. ن، ج 2، ص 340.
(2) م. ن، ج 9، ص ص 36 ـ 37.
(3) م. ن، ج 11، ص ص 210 ـ 224.
(4) م. ن، ج 6، ص 224.
(5) م. ن، ج 6، ص ص 225 ـ 226.
(6) م. ن، ج 6، ص 224.

يمهّد للموت بذكر مرض العاشق. فهذا قيس بن ذريح «مرض مرضاً شديداً أشرف منه على الموت [. . .] فجعل أبوه يبكي ويدعو له بالفرج والسلوة فقال قيس: [من الوافر]

لَقَدْ عَذَّبْتَنِي يَا حُبَّ لَيْلَى ... فَقَعْ إِمَّا بِمَوْتٍ أَوْ حَيَاةِ
فَإِنَّ الْمَوْتَ أَرْوَحُ مِنْ حَيَاةٍ ... تَدُومُ عَلَى التَّبَاعُدِ وَالشَّتَاتِ
وَقَالَ الأَقْرَبُونَ تَعَزَّ عَنْهَا ... فَقُلْتُ لَهُمْ إِذَا خَانَتْ وَفَاتِي»[1]

وهذا عروة بن حزام لما رحل عن حبيبته «نكس بعد صلاحه وتماثله، وأصابه غشي وخفقان [. . .] ثم عاد من عند عفراء إلى أهله وقد ضني ونحل [. . .] حتى أشرف على التلف وأحسّ بالموت»[2]. وهذا المرقش الأكبر اصطحب معه في طريقه إلى أسماء وليدة له وزوجها «فمرض في الطريق حتى ما يُحمَل إلا معروضاً»[3]. وما بلغ خبره أسماء وزوجها وحملاه حتى مات. وهذا عبد الله بن العجلان «لما اشتد ما بـ[ـه] من السقم خرج سراً من أبيه مخاطراً بنفسه حتى أتى أرض بني عامر [. . .] وقصد خباء هند [. . .] فلما نظر إليها ونظرت إليه رمى بنفسه عن بعيره، وأقبل يشتد إليها، وأقبلت تشتد إليه، فاعتنق كل واحد منهما صاحبه، وجعلا يبكيان وينشجان ويشهقان، حتى سقطا على وجوههما. وأقبل زوج هند ينظر ما حالهما فوجدهما ميتين»[4].

وإمعاناً في دفع القارىء إلى التعاطف مع العاشق، فإن عدداً من الرواة يعمد إلى اختيار مكان الموت بحيث تباغت المنية العاشق وهو غريب. وهذا شأن عبد الله ابن العجلان الذي توفي في ديار بني عامر وهم أعداء قومه، والمرقّش الأكبر الذي توفي بعيداً عن أهله ودفن في أرض مراد موطن الرجل الذي تزوّج أسماء، وتوبة بن الحمير الذي قتل في غزاته لبني عامر بن عوف بن عقيل، وعروة بن حزام الذي تقول إحدى الروايات إنه كان عائداً من زيارته عفراء «فلم يزل في طريقه حتى مات قبل أن يصل إلى حيّه بثلاث ليال»[5]، والصمّة القشيري الذي مات وحيداً بطبرستان. ووضاح اليمن الذي يقال إنه قتل بدمشق، وجميل بثينة الذي توفي بمصر، والمجنون الذي وجد «في واد كثير الحجارة خشن، وهو ميّت بين تلك الحجارة»[6]. وكأن رغبة الراوي في تجسيد الغربة قد دفعته إلى جعل المجنون يموت وحيداً في مكان عارٍ لا حنان فيه، ولا يُكتشفُ موته إلا بعد ثلاثة أيام.

(1) م. ن، ج 9، ص 206.
(2) م. ن، ج 24، ص ص 154 ـ 160 ـ 161.
(3) م. ن، ج 6، ص 130.
(4) م. ن، ج 22، ص 241.
(5) م. ن، ج 24، ص 158.
(6) م. ن، ج 2، ص 90.

ولئن كانت هذه الروايات تهتمّ أساساً بموت العاشق فإنّ عدداً منها وصل بينه وبين موت الحبيبة. وقد رأينا في رواية عبد الله بن العجلان صورة من الاجتماع في الموت، لولا خشية الوقوع في مفارقة تاريخية لقلنا إنها رومنطيقية. وكذلك كان أمر عبد الله بن علقمة وحبيشة، فقد حدّث قاتلُه قال: «فضربت عنقه. فأقبلت الجارية ووضعت رأسه في حجرها، وجعلت ترشفه وتقول: [من الطويل]

[فَـ] لاَ تَبْعَدَنْ يَا عَمْرُو حَيّاً وَهَالِكاً ... فَحُقَّ بِحُسْنِ الْمَدْحِ مِثْلُكَ مِنْ مِثْلِي [. . .]

وجعلت تبكي وتردّد هذه الأبيات حتى ماتت، وإن رأسه لفي حجرها»[1]. ولم يكن مصير عفراء بعيداً عن هذا، فلما توفّي عروة «بلغ عفراء خبره، فقامت لزوجها فقالت: يا هناه، قد كان من خبر ابن عمي ما كان بلغك، ووالله ما عرفت منه قط إلا الحسن الجميل، وقد مات فيّ وبسببي. ولا بدّ لي من أن أندبه وأقيم مأتماً عليه. قال: افعلي. فما زالت تندبه ثلاثاً، حتى توفّيت في اليوم الرابع»[2]. أما بثينة فلم يُذكر أنها توفيت، ولكن تصوير حزنها على جميل لما بلغها نعيه ينمّ عن موتها المعنوي فقد قالت للرجل الذي أخبرها بوفاته في مصر: «يا هذا، والله لئن كنت صادقاً لقد قتلتني، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتني. قلت: والله ما أنا إلا صادق، وأخرجت حلّته. فلما رأتها صاحت بأعلى صوتها، وصكّت وجهها، واجتمع نساء الحي يبكين معها ويندبنه، حتى صعِقت فمكثت مغشياً عليها ساعة وهي تقول: [من الطويل]

وَإِنَّ سُلُوِّي عَنْ جَمِيلٍ لَسَاعَةٌ ... مِنَ الدَّهْرِ مَا حَانَتْ وَلاَ حَانَ حِينُهَا
سَوَاءٌ عَلَيْنَا يَا جَمِيلُ بْنُ مَعْمَرٍ ... إِذَا مُتَّ بَأْسَاءُ الْحَيَاةِ وَلِينُهَا»[3]

وإذا كانت رواية كثير تنصّ على أن عزة ماتت قبله وأنه قصد اليمن بعد موتها، فإنّها تذكر أيضاً أن عزة قصدت عبد الملك بن مروان وقد عجزت، وأنها قالت عن كثير: «والله لقد كنت في عهده أحسن من النار في الليلة القرة»[4].

أما رواية قيس فقد اختلطت السبل في نهايتها، وكأنّ الرواة أرادوا أن يختموها بما يحيّر القارىء فقد «ذكر أكثر الرواة أنّهما ماتا على افتراقهما، فمنهم من قال: إنه مات قبلها وبلغها ذلك فماتت أسفاً عليه. ومنهم من قال: بل ماتت قبله ومات بعدها أسفاً عليها»[5]. وختمت الرواية بخبر يقول إن الحسن والحسين توسّطا من جديد

(1) م. ن، ج 7، ص 290.
(2) م. ن، ج 24، ص 164.
(3) م.ن، ج 8، ص 164.
(4) م. ن، ج 9، ص ص 29 ـ 35.

بتدخل من ابن أبي عتيق، فطلقا لبنى من زوجها وزوّجاها قيساً، فظلا معاً إلى أن ماتا. وهذه النهاية، وإن ختمت بالموت، خارقة لما جرت عليه سنّة الروايات العذرية. فهي الحالة الوحيدة التي يؤول فيها الفراق اجتماعاً، والضنى سعادة. وإذا كنّا نلمح في هذه النهاية نزوعاً إلى تجاوز المألوف في السنّة الأدبية، فلا ينبغي لنا أن نغفل عن العنصر الشيعي المتسرّب في أحنائها. ولعلّ لهذا العنصر علاقة بما نجده في رواية المجنون من ندم أبي ليلى على عدم تزويجه بها، وفي رواية عروة بن حزام من قول معاوية بن أبي سفيان لمّا بلغه خبرهما: «لو علمت بحال هذين الحرّين الكريمين لجمعت بينهما»[1]. فالنزعة الأموية ههنا أصبحت شيعية هناك، وما جاء إنشاء هنا جعل خبراً هناك.

هذه هي الوظائف الرئيسيّة للرواية العذرية كما وردت في كتاب «الأغاني». أردنا من خلالها أن نبيّن كيف أصبحت الأخبار تخضع في ظهورها لنظام محدّد، قد تختلف تفاصيله من رواية إلى أخرى، ولكن ضوابطه البنائية واحدة أو تكاد فيها جميعاً. ولعلنا بهذا قد بيّنا أن الخبر باعتباره وحدة سردية جامع بين سمتين قد تبدوان متناقضتين هما الاستقلالية والتبعية. وقد حاولنا في القسم الأول من هذا الفصل أن نفحص عن كيفية تتابع الأخبار في الأثر الواحد. ورأينا أن هذا المبحث ـ على عسره ـ يمكن أن يفضي بالدارس إلى نتائج قد تغيّر ما استقرّ في الأذهان من أن هذه المؤلفات القديمة لا منهج لها ولا خطة في ترتيب ما تحتوي عليه من أخبار، وإنما هي عشوائية تسودها الفوضى. وقد سعينا إلى التمييز بين النظام الاتفاقي والنظام التاريخي والنظام الغرضي وإلى رصد العلاقات التي يمكن أن تنشأ بين هذه النظم في الأثر الواحد. وقادنا البحث إلى أنّ للخطاب في هذه المؤلفات منطقاً مختلفاً عن منطق الأحداث يسمح له بكسر زمنيتها أو إيقافها أو تمطيطها أو اختزالها أو إعادتها أو تخطيها بحسب الأهداف التي يحدّدها المؤلف لنصه، والمسالك التي يريد أن يدرج ضمنها القراءة.

أمّا القسم الثاني من هذا الفصل فقد أردنا أن نعالج فيه مسألة نظام الأخبار من خلال مدوّنة محدّدة من وجهين: فهي تنتمي كلها إلى أثر واحد هو كتاب «الأغاني» ثم إنها تتصل بموضوع واحد هو الحبّ، وقد أسلمنا النظر في هذه النصوص إلى أن نظام الأخبار فيها محدّد بجملة من الوظائف أحصينا منها خمس عشرة وظيفة. ولئن كان نظام هذه الوظائف واضحاً في عدد من روايات المدوّنة، فلا بدّ لنا من الإلماع إلى أن

(1) م. ن، ج 9، ص 219.

(2) م. ن، ج 24، ص 164.

هذا النظام لم تقع مراعاته في جميع الحالات. ولا شك عندنا أن لطبيعة أدب الأخبار دوراً مهماً في هذا الاضطراب. ذلك أن تعدّد الروايات المتعلقة بوظيفة واحدة أحياناً وبأكثر من وظيفة أحياناً أخرى يضطر المؤلف إلى سوق الخبر ثم العودة إلى نقطة سابقة في الزمان مع بداية الخبر الموالي له. وقد رأينا ذلك في وظيفة الموت مع قيس بن ذريح وعروة بن حزام، وفي تعدّد الروايات ودورانها حول عدد من الوظائف في قصّة المجنون خاصّة. كما أن هذا النظام وإن كان ماثلاً في جل قصص العشاق يختل أحياناً فتسقط بعض الوظائف أو تخرج عن وضعها فتتقدّم أو تتأخر. فالمخالفة قد ترد قبل الطلب أو بعده، والتحدّي قد يأتي قبل التدهور أو بعده. وربما اتّخذ الحدث الواحد وظائف مختلفة بحسب الروايات. فإهدار دم العاشق قد يأتي عند تشبيبه بالحبيبة فيكون مخالفة، وقد يأتي بعد الطلاق فيكون جزءاً من وظيفة التأزم، وقد يأتي نتيجة إلمام العاشق بحبيبته المتزوجة فيرتبط بوظيفة التحدي. كما أن بعض الأحداث تتكرّر في النص الواحد وتنسج حولها أخبار كثيرة شأن الزيارة. وربما وجدت أحداث تعسّفنا لإدراجها في إحدى الوظائف المذكورة، ومثال هذا رواية كثير وخيانته عزّة وتعدّد محبوباته، أو رواية وضاح وما جاء فيها من إصابة روضة بالجذام.

إنّ هذه القضايا لتدلّ على وجوب استخدام آليات مخصوصة لدراسة هذه النصوص. كما أن المرحلة التي وجدت فيها الروايات يمكن أن تضيء لنا بعض الجوانب، فهي مرحلة وسطى بين سيطرة وحدة الخبر وابتداء تكوّن سنّة جديدة في التأليف يصبح فيها الخبر أحد المكونات الداخلة في نظام أشمل. ولعل هذا الحديث أن يردّنا إلى مسألة الأجناس الأدبية التي أثرناها في الباب الأول. فأجدر بهذه الروايات العذرية ـ وبأيام العرب أيضاً ـ أن تعدّ جنساً فرعياً خرج من رحم الخبر واتخذت له ضوابط وقوانين محدّدة ينفرد بها. ولهذا البحث ـ كما رأينا ـ سبب بما كنا أثرناه في الباب الثاني حين تحدثنا عن دور المؤلف. وقد تجلّى لنا أن بعض الأفكار التي سقناها هنالك ربّما كانت بحاجة إلى مراجعة إن نحن انصرفنا إلى النظر في مدوّنة مضبوطة. فهذا الربط بين الأخبار على نحو يحقق الصلة بين هذه الوظيفة وتلك، أو يخرج هذه الوظيفة مخرجاً طريفاً في هذه الرواية، مبتذلاً في تلك، قد يكون مدخلاً هاماً يساعدنا على تبيّن الدور الخفي الذي يضطلع به المؤلف في هذا اللون من الروايات. ولا بدّ لنا إن شئنا أن نستكمل البحث في متون الأخبار من أن ننظر في العلاقات القائمة بينها لا في المستوى السياقي بل في مستوى جدولي، وهذا ما سنحاول القيام به في الفصل الثالث من هذا الباب وقد وسمناه بتناسل الأخبار.